عمدة الأديب

عبد الله بن المقفع

دراسة لأدبه وطرف من سيرته ونخبة من كلامه

تأليف

محمد سليم الجندي

عضو المجمع العلمي العربي، وأستاذ الأدب العربي في تجهيز دمشق

بنفقة وعناية

المكتبة العربية في دمشق
لأصحابها عبيد اخوان

مطبعة الترقي بدمشق

١/١١/١٣٥٥/١٢٠٠



الحمد لله رب العـالمين ، وصلواته المباركة على سيدنا محمد ، وعلى صفوته من خلقه أجمعين .

وبعد فإن لعبد الله بن المقفع ولكتبه من الذكر النابه والصيت الطائر في عالم الأدب مايغني عن الإطناب في التعريف بهما وتقريظهما .

وهـذه رسالة جمعت فيها نخبةً صالحةً من عيون كلامه ، وطائفةً من متفرق أخباره ، إلى شيء من الدراسة لأدبه ، وقد تعمدت إيراد كلماته بنفسها في كثيرٍ من المواطن للاستغناء عن إيرادها ثانية ، أو الرجوع إلى مآخذها ، للاطلاع على أسلوبه وديباجته ، وجمعت بين ما تشابه من كتبه ليتضح موطن الاتفاق والاختلاف ، واجتزأت بالقدر الذي سردته من كلامه عن إفراد كل غرضٍ ببحث خاص ، حذراً من السآمة .

ولست أدعي لكلمتي هذه الإحاطةَ بكل ما يحتـاج إليه ، ولا السلامةَ من الخطإ في النقل أو الرأي ، وإنما أردت أن يكون فيما أوردت سِدَادٌ من عوَزٍ ، وتقريبٌ للسبيل ، لمن يود الإلمام عن كثب بآثار هذا النابغة الفَذّ .

دمشق منتصف شوال عام ١٣٥٥ — محمد سليم الجندي

اسمه وكنيته ونسبه

اسمه وكنيته

كان اسم ابن المقفع روزبة أو روزبه، هذا هو المعروف والمشهور، وكان يكنى أبا عمرو، فلما أسلم سمي عبد الله، وكني بأبي محمد.

نسبه من قبل أبيه

المعروف أن اسم أبيه داذويه، وفي لسان الميزان رادويه، وقال في تاج العروس في ابن المقفع: وكان اسمه روزبة أو داذبة بن داذ جشنش قبل إسلامه، والقول الأخير في اسمه هو الذي ذكره في كتابه الموسوم باليتيمة.

سبب تلقيبه بالمقفع

ذكرت جمهرة العلماء والمؤرخين أن الحجاج ولى داذويه خراج فارس، فاحتجن شيئاً من مال السلطان، فضربه الحجاج على يده حتى تقفعت (أي تقبضت وتشنجت) فلقب بالمقفَّع، وقد صرح بهذا السبب صاحب العُباب وابنُ النديم وغيرهما. وزعم زاعمٌ أنه لقب بالمقفِّع لأنه كان يعمل القِفاع[1]، وهذا بعيد، لأن هذه الصيغة لم ترد للدلالة على الصنعة، والمقفِّع ابن المبارك. وماوراء هذا أمسك عنه المؤرخون.

---

(١) جمع قَفعة: شيء يعمل من خُوص كالزَّبيل يحمل فيه القطن أو يجتنى فيه الرُّطب ونحوه.

موطن المقفع

أصل المقفع من حوز كما في الفهرست : ١٧٢ . وهي خوزستان : مدينة من كُوَرفارس ونقله عنه في رسائل البلغاء بلفظ خوز ، وقال ياقوت : بلاد خوزستان يقال لها الخوز ، وأهل تلك البلاد يقال لهم الخوز . . . والخوز ألأم الناس وأسقطهم نفساً ، وقال في الأهواز : هي جمع هوز وأصلها حوز ، فلما كثر استعمال الفرس لهذه اللفظة غيرتها حتى أذهبت أصلها جملة ، لأنه ليس في كلام الفرس حاء مهملة ، ثم تلقفها العرب منهم فقلُبت بحكم الكثرة في الاستعمال . . وعلى هذا يكون الأهواز اسماً عربياً سمي به في الإسلام ، وكان اسمها في أيام الفرس خوزستان .

وأما لسانهم فإن عامتهم يتكلمون بالفارسية والعربية ، غير أن لهم لساناً آخر خوزياً ، ليس بعبراني ولا سرياني ولا عربي ولا فارسي .

وقد افتتح سوق الأهواز أبو موسى الأشعري عَنوة سنة ١٧ ، وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن العرب نزلوا الأهواز منذ الفتح ، فكان أهلها يتكلمون بالعربية والفارسية .

وقال الجهشياري : أصله من جور وهي مدينة بفارس طيبة نزهة . هذا ما ذكروه في موطن المقفَّع ونسبه . وأما نسبه من جهة أمه فلم أهتد إليه سبيلا .

ميلاد[1] ابن المقفع وعصره

ولد عبدالله بن المقفع حوالي سنة ١٠٦ أي في خلافة هشام بن عبد الملك ، و كانت دولة بني مروان في عهده مخضلّة نضرة ، ثم تعاقب على عرش هذه الخلافة الوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد الأول ، ثم مروان بن محمد آخر الخلفاء المروانيين .

وفي هذا العهد ذَبَل عود الدولة المروانية وصوّح نبتها ، ثم اجتُثَّت من جذورها على يد العباسيين .

فأدرك ابن المقفع عهد السفاح موسس الدولة العباسية ، ثم عهدَ أخيه المنصور موطدِ أركانها ، ورافع بنيانها .

ومرّ عليه في خلال ذلك ضروبٌ متعددة من أنواع الحياة المختلفة .

الحياة السياسية

أما الحياة السياسية فقد شهد ابن المقفع في عمره القصير تناقص الدولة الأموية ، وانقادَ جذوات الفتن والحروب الداخلية فيها ، واضطرابَ حبل الدولة ، واتصالَ ذلك بالحروب الطاحنة التي شبّها العباسيون وأنصارهم على المروانيين وأشياعهم ، وانتهاءها بانقراض هذه الدولة وطمس معالمها وإبادة خضرائها .

---

(١) الميلاد اسم للوقت الذي يولد فيه . والمولد اسم للمكان ، ويجوز أن يكون للزمان أيضاً .

ثم لما ولي السفاح لم يخلُ عهده من حروبٍ لأعداء الدولة الحديثة ، ومكافحةٍ للبقية الباقية من أشياع الدولة الزائلة ، وتأهبٍ لخصوم الدولة من الأعاجم الذين لم يألوا جهداً في دسّ الدسائس ونصب المكايد للقضاء عليها وإلحاقها بسابقتها ، فانتهى عهده قبل أن يصفوَ له الأمر .

ثم قام من بعده أخوه المنصور ، فترسم خطى أخيه ، ومضى في إنجاز الخطط التي رسمها لسلامة الدولة من كيد أعدائها ، فشغب عليه طائفةٌ ممن طمعوا في منازعته عروة الملك ، منهم عمه عبدالله بن علي ، ومنهم الإمامان محمد وإبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن بن الحسين وغيرُهم . وممن ارتاب في أمرهم المنصور وأشفق على الدولة الفتية من كيدهم ، كأبي مسلم الخراساني ومن طبع على غِراره ، وقد اضطُرّ السفاح والمنصور إلى اتخاذ بطانةٍ من خُلصانهما ، وأطلقا أيديهم في البطش والتنكيل والانتقام من خصوم الخلافة وأعدائها ، فاهتبل بعض هؤلاء العمال هذه الفرصة ولم يدّخروا وسعاً في العبث بمصالح الناس ، وغش الخلفاء والولاة ، وأصاخوا إلى أقوال السعاة والوُشاة ، واتّجروا بالغيبة والنميمة والافتراء ونحو ذلك من الأخلاق المذمومة التي كانوا يتخذونها ذريعةً لنيل الحظوة أو تعزيز المنزلة عند أولي الأمر ، ووسيلةً لسدّ جشعهم ، وقد شهد ابن المقفع هذا الانقلاب والاضطراب ، واجتاز بهذه الأطوار ، وكان مولعاً بالبحث عن الحياة ودرسها ، فأضاف إلى ذلك ماشهده من تناكر الأخلاق ، والإخلال بحقوق الإخاء ، وأودع ذلك حكمته التي أفرغها في كتبه .

الحياة الدينية

وأما الحياة الدينية فقد كان للوازع الديني في صدر الدولة الأموية سلطانٌ قوي تخضع له الخلفاء فمن دونهم ، وكانت ساسة الأمويين يقودون الدهماء ويستنفرونهم إلى ساحات الموت باسم الدين ، وكانت الناس أطوعَ لهم من بنان ، وأتبع من ظلٍّ لاسم الدين .

ثم أخذ هذا الأمر يضمحلّ شيئاً فشيئاً ، حتى كان عهد الوليد ، فتهاون في أمر الدين ، وفشت في عهده الزندقة قليلاً ، واتهم بها هو وطائفةٌ من رجالات الدولة ، ثم جاء مروان بن محمد آخر الخلفاء المروانيين ، فاتصل بالجعد بن درهم واعتصم بحبل نِحلته[1]

فلما قامت الدولة العباسية ، واشتد اختلاط العرب بالأعاجم ، وكان هؤلاء يئسوا من القضاء على الدولة الفتية بالقوة ، ليقظة خلفائها وأولي الأمر فيها ولشدة بأسهم ، فرأوا أن أفضل وسيلةٍ تبلغهم مأملهم هي تمزيق الوحدة الدينية ، فعمدوا إلى بثّ الشكوك في الدين ، ونشرِ العقائد الزائغة بين طبقات العامة ، واستفرغوا المجهود في ذلك .

وكان المنصور فتح للعلماء أبواب التأليف والترجمة ، فترجم كثيرٌ من الكتب المشتملة على مثل هذه العقائد ، وفسح للناس أن يتمتعوا

---

(١) الجعد بن درهم، مولى سُويد بن غَفَلة صاحب رأي أخذ به جماعة بالجزيرة إذ كان مروان والياً بها ، وإليه نسب فقيل له مروان الجعدي — تاج العروس والعقد الفريد ج ٣ ص ١٧٩

بالحرية المطلقة في الأقوال والآراء والأعمال ، فكان من أثر هذا وذاك أن انتشرت النِّحَل المختلفة والعقائد الضالة بين فريق من الناس ، وفشا الإلحاد والزندقة فشواً شديداً ، وأحبت طائفة ممن لا يبالون بشيء في سبيل شهواتهم ولذاتهم هذه المذاهب وتقبلوها بقبول حسن ، فكانوا يجتمعون في مجالسَ مختصةٍ بهم ، فيشربون ويتنادمون ، ويهجو بعضهم بعضاً كما سيأتي ، وكان عبد الله بن المقفع ممن يشهد مجالسهم ، وممن ظهرت على فلتات لسانه مَسحة من عقائدهم .

وكان إلى جانب هذه الفئة جمهرةٌ من العلماء والنساك والزهاد والصالحين الذين كانوا معتصمين بحبل الدين المتين متمسكين بما نفثه في رُوعهم من مكارم الأخلاق والترفع عن كل ما تأباه المروءة والشرف .

الحياة الاجتماعية

وأما الحياة الاجتماعية فإن الناس كانوا في أول عهد بني أمية — كما قدمنا — يخشون الوازع الديني ، ويخشون الخلفاء والعمال لأنهم كانوا يخشونه في ظاهر أحوالهم ، وكان العرب في ذلك العهد لم يشتدّ اختلاطهم بالأعاجم ، فكانت الجمهرة منهم عرباً مسلمين في خلافتهم وسلطانهم ، وعقائدهم وأخلاقهم ، وعاداتهم وأنسابهم .

ثم رأت ساسة الأمويين أن الحجاز مقرٌّ لخصومهم ، ومبعثٌ للفتن والشغب عليهم ، فأحبوا أن يقتلوا أهله ويُلهوهم بسفساف الأمور ، فأغدقوا على القرشيين وأشياعهم سجالاً من أعطياتهم ، وغمروهم بالراحة

والترف ، فانغمس هؤلاء في الشهوات والملاذ ، والمجانة والخلاعة ، وكان الأمويون يزينون ذلك لهم ، ويمدونهم في طغيانهم ليستريحوا من شغبهم ، ولكن هذا الشر لم يقتصر على الحجاز ، بل تعداه إلى غيره ، حتى دخل قصور الخلفاء والعمال ، فكانوا يغضون على ما يكرهون في سبيل مصلحتهم ، فإن عبد الملك وغيره كان يسامح مثل الأخطل أن يدخل عليه والخمر تقطر من لحيته ، وأن ينهش أعراض الأنصار وغيرهم لأنه كان ينافح عن سلطانه بلسانه ، واحتذى عماله على مثاله ، وقد اشتدت وطأتهم على الناس ، حتى اضطروهم إلى الاعتصام بحبل الكذب والزور ، وراجت سوق السعاية في آخر العهد الأموي ، وتخلى كثيرٌ من الناس عما كان يتحلى به من الأخلاق الفاضلة كالوفاء والسخاء والصدق وما شاكلها ، حذراً على نفسه أو أحدٍ من قومه أن يجره ذلك إلى العذاب والنكال ، وظل هذا الأمر آخذاً في الازدياد ، حتى آل الأمر إلى العباسيين الذين خلّوا بين الناس وحريتهم . وكثر في عهدهم اختلاط العرب بالأعاجم ، فزادهم ذلك ضغثاً على إبالة ، وفسدت الأخلاق كما فسدت العقائد والأنساب ، وانصرف كل واحد من الناس إلى هواه .

وكان مثلهم كمثل الماء المحصور في أنبوب ، ثم حطم ذلك الانبوب . ألقى العباسيون حبل كلٍ على غاربه ، وسامحوا بعض رجال العجم بما كانوا يقترفونه ، لدالتهم عليهم ، ولكن الناس اعتقدوا أن ذلك شريعة عامةٌ

ومنهاجٍ قويم ، فأخذوا يتهافتون على الموبقات والمنكرات ، تهافتَ الذباب على الشراب ، والفراشِ على النار .

وكان من أعظم العوامل في انتشار الخلاعة وما يتبعها من الأخلاق الدنيئة انتشارُ القيان والغلمان في ذلك العهد ، فقد كانت هذه الفئة مدرسة متنقلة يتخرج بها الناس في الأعمال المنكرة والخلائق الرذْلة .

كما كان فريق من رجال الدولة من أكبر الدعاة إلى مشايعة هذا المذهب المنكر ، والناس مولعون منذ القديم بالتشبه بأولي الأمر واستحسان ما استحسنوه .

وهناك عواملُ أخرى كان لها أثر كبيرٌ في انغماس أناس في حمأة الرذيلة ، وتجافيهم عن الفضيلة ، منها انتشارُ الزندقة والإلحاد ، ومنها استفاضة الثروة ، فقد كانت الأموال تنصبُّ من نواحي الدولة إلى بغداد والعراق ، كما تنصبّ المياه من الشِّعاب والتِّلاع إلى قرارة الوادي ، ولذلك رأينا العرب بعد قليل من قيام الدولة العباسية غيرَ العرب الذين كانوا من قبل .

فقد غاض بينهم الوفاء ، وقلّ الصدق ، وضعفت المروءة . وفشا كثيرٌ من الأخلاق الذميمة ، كالغش والسعاية والنميمة ، واطراح الحشمة والأنَفَة ، والتهاون بحقوق الإخاء والصداقة والصحبة ، واستباحة الأموال والأنفس بحكم الهوى لا بحكم الشرع .

وما ذكره ابن المقفع في كتبه من الأخلاق التي نهى عنها أو أمر

بغيرها ، لم يكن إلا صورة استخلصها من أخلاق أهل عصره ، ولو أتيح له أن يستقري أخلاقهم كلها لجاءنا من ذلك شيء كثير في حكمه .

ومن البديهي أن ذلك لم يكن عاماً لجميع الطبقات في ذلك العهد ، بل كان إلى جانب هذه الفئة طائفة هم المثل الأعلى في التقى والعفاف والترفع عن الدنايا ومحاربة الرذيلة من العلماء والعمال وأعيان الدولة وغيرهم .

الحياة العقلية

وأما الحياة العقلية فإن التاريخ يحدثنا أن العرب في العهد الأموي لم يكن عندهم من مظاهر الحياة العقلية غير الشعر ، وكان الشعر بدوياً في نسجه وحوكه ، وديباجته وأوزانه ، وأغراضه وأخيلته ومعانيه . وقد بلغ في ذلك العهد درجة لم يبلغها من قبل ، لأن الخلفاء ومن لف لفهم اتخذوا الشعراء ألسنة تنوه بفضائلهم ، وأسنة تذود عن حياضهم ، وسلطت فريقاً منهم على آخر ليشتغل كل شاعر وأشياعه بغيره من الشعراء وأشياعهم ، فيلهو الناس بذلك عن الاشتغال بالسياسة ، وقد وفقوا إلى ذلك ، ونجم عنه ارتقاء الشعر في أسلوبه وبعض أغراضه .

ثم وضع بعض العلماء كتباً في التاريخ والأنساب والمثالب ، ورسائل في الطب والكيمياء والغناء ، وشرع في جمع الحديث وتدوينه ، ووضعت أصول النحو ، وترجمت رسائل في الطب والكيمياء والنجوم .

ولكن ذلك كله لم يكن إلا سداداً من عوز ، وبلغة من كفاف . فلما آل الأمر إلى بني العباس وقام الخليفة الثاني حض الناس على

التأليف والتدوين والترجمة ، واستقدم العلماء والتراجمة وأغدق عليهم وابلاً من صِلاته وأعطياته ، فلم يمض إلا قليلٌ من الزمان حتى أصبحت خزانة الكتب العربية مكتظةً بما ترجم إليها من فلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، وآداب فارس والروم ، و كلِّ ما عند الأمم الأعجمية من العلوم مما لم يكن عند العرب ، طافحةً بما دوَّنه العرب من علمي الشريعة واللسان .

وحتى أصبحت بغداد خاصة والعراق عامة تعج بالعلماء والحكماء ، والأطباء والفلاسفة ، والنحاة واللغويين ، والأُصوليين والجدَليين ، وغيرهم من رجال العلم الذي زخرت بحوره في عهد قليل .

وهذا برهان قاطع ، ودليل واضح ، على أن في العربي استعداداً للرقي والنهوض في وقت قصير ، إلى ما لا يبلغه غيره في أضعاف ذلك الوقت .

و كان للسفاح والمنصور عنايةٌ كبرى بفنون الأدب وبالأُدباء ، فكان للشعراء في عهديهما من المكانة الرفيعة والحظوة والصِّلات الجزيلة والأعطيات الوافرة ما لم تكن لهم عند غيرهما ، وبلغ من عناية المنصور بالشعر أنه لما رجع من دفن ابنه الأكبر قال لحاجبه : انظر هل في أهلي من يحفظ . .

أَمِنَ ٱلْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ‎ ‎ ‎ وَٱلدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

فعاد الحاجب وأخبره بأنه لم يجد فيهم من يحفظها . فقال : والله لمصيبتي في أهل بيتي أن لا يكون فيهم من يحفظها أشدُّ من مصيبتي بابني .

وأما عنايتهما بالكتابة والكُتَّاب ففنية عن الإسهاب ، لأن الكاتب كان يرتقي إلى رتبة الوزارة ، وهي أعظم منزله في الدولة بعد الخلافة .

الانشاء والمنشئون

كان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم يتولون الكتابة بأنفسهم ، وكان بعض الصحابة يكتب لبعضهم أحيانًا ، ولكنهم لم يتخذوا كُتَّابًا معينين ، ولا جعلوا الكتابة وظيفة معينة في الدولة ، فلما قام الأمويون درج أولهم على هذه الطريقة ، وقد ساعدهم على ذلك أنهم كانوا فصحاء كتابًا بالسليقة ، ولذلك نرى كثيرًا من كتبهم وعهودهم في كتب التاريخ والسير والمغازي والفتوح ، إلا أنهم كانوا يتخذون في الغالب كتابًا للخراج والأعطيات والجند ، لأن وقت الخليفة لا يتسع لمثل ذلك .

ثم لما اتسعت رقعة الخلافة ، وكثرت أعمال الخلفاء ، عهدوا بذلك الأمر إلى طائفة من خُلَصائهم واتخذوهم كتابًا ، وآخر من كتب لآخر خليفة منهم عبد الحميد بن يحيى ، كتب لمروان آخر الخلفاء المروانيين حتى انقرضت دولتهم ، وهو أول من تفنن في الكتابة وميز فصولها ، وأطال التحميدات ، وجعل لها صورًا مختصة بالبدء والختام .

فلما قامت الدولة العباسية ، جعلوا الكاتب وزيرًا ، فقد اتخذ السفاح أول وزير له منهم ، وهو أبو سلمة الخلّال ، ودرج الخلفاء العباسيون على هذا . وقد نبغ عددٌ كبير من الكتاب في فجر هذا العصر ، وكان أكثرهم من الأعاجم والموالي .

أثر الدم في الثقافة والعبقرية

زعم فريق من الشعوبية ومن يطرب لنغماتهم أن للدم أثراً كبيراً في تكوين الملكات واتساع الفكر ، واستدلوا على ذلك بنبوغ مثل ابن المقفع وابن العميد وبشار وابن الرومي وغيرهم ، وأخذت ألسن المتكلمين وأقلام الكتاب تلوك هذا الزعم الذي يفضي في نهايته إلى أن العربي بفطرته ضعيف الملكة قاصر الفكر ، فإذا لم يلقح دمه بدم آري أو نحوه لا يمكنه أن يجاري أمثاله ممن كان أعجمياً صرفاً أو مشوباً بدم العجمة ، واستدلوا على ذلك بأن خيال الجاهلي قاصر ضيق ، ولذلك لم يؤثر عن عرب الجاهلية مثل ما أثر عن شعراء اليونان والفرس .

والحق أن هذا الزعم واهٍ باطل يكذبه الواقع ، فإن العربي المنغمس في الجهالة والبداوة ، الناشئ في صحارٍ بعيدة عن العلم والحضارة لما أيقظه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من غفلته ، هب إلى مجاراة الأمم العريقة في الحضارة والعلم فتقدمها ، واستطاع أن يحمل إلى العالم أجمع مدنيةً أفضلَ من أفضلِ مدنيةٍ عرفها من قبل ، قبل أن يمضي على يقظته ربع قرن ، واستطاع أن يختطَّ المدن ويمصِّر الأمصار ، وأن يكون هادياً ومعلماً للبشر في هذا العهد القليل ، ولو لم يكن فيه استعدادٌ تامٌّ لمثل هذا النهوض والرقي لما جاوز جزيرته القاحلة وباديته المجدبة .

وأما تأثير الدم في العبقرية فبطلانه واضح لا يحتاج إلى دليل ، ولو صح ما زعموا لكان كل أعجمي نابغة عبقرياً ، والواقع يشهد ببطلان

هذا ، فإن المقفع وأباه وجده إلى آدم لم ينقل إلينا التاريخ شيئاً عن نبوغهم أو عبقريتهم ، وكذلك برد أبو بشار وأبوه يرجوخ وجده إلى آدم ، وألوف من أمثال هؤلاء النابغين لم يكن بين أصولهم ولا فروعهم أيضاً وبين العبقرية صلة ولا رابطة ، ولو كان للدم تأثير لكان أعقاب كل نابغ نابغين إلى يوم القيامة ، وهذا باطل ·

وإنما يرجع الفضل في تكوين الملكات ، واتساع الأفكار ، وفيض القرائح ، إلى أمور :

منها بل أعظمها الاستعداد الفطري والقابلية النفسية ، فإذا فقد هذا فلا يمكن أن ينبغ الإنسان ولو كان أبوه أنبغ أهل الأرض وأفضلهم ·

ومنها الثقافة ، فإن المرء مهما كان في فطرته استعداد لا ينبغ مالم يجهز نفسه بالعدد التي يتوقف عليها إظهار نبوغه ·

ومنها تغذية الثقافة مما يحيط بصاحبها من البيئة الطبيعية والاجتماعية ، والتمكن من إثارة عبقريته وإيقاد جذوتها ، فقد تعرض للمرء أسباب قاهرة تحول بينه وبين إظهار ذلك ·

وقد كان العربي فى العصر الجاهلي كالينبوع الثرار الذي سدت منابعه وردمت بالحجارة وغيرها ، فلما جاء الإسلام ومهد له السبيل فاض وخرج من منبعه الضيق حتى أروى القاصية والدانية ، وكانت العبقرية كامنة فيه ككون النار في الحجر ، لا يظهر نورها حتى يقدحها قادح ، فلما اقتدح أورى ·

وقد اطلع بعد ذلك على مانقل من علوم الأوائل ، ودُوّن من علوم الشرع واللسان ، وكان العباسيون أطلقوا الألسن والأفكار من عُقلها كما قلنا ، فاقتضى ذلك بحكم الطبيعة أن يهبّ الفكر العربيّ من رقدته ، ويسير في طريق الرقي والتقدم .

ومما لايستطاع إنكاره أن الانقلاب العباسي فتح للأدب العربي أبواباً جديدة ، فتعددت الأغراض ، وتنوعت الفنون والمناحي ، ولطفت الأذواق ، وازداد الترف الأدبي ، ووجد العربي من سعة لغته وغزارة مادّتها وفصاحة أسلوبها ماساعده على أن يضمّ إلى تالده كل طريف ، وأن يذيب العناصر الأعجمية ، ثم يسبكها في قالب عربي ويصبغها بصبغة عربية .

وكذلك كان شأن المستعربين والموالي وأعقابهم ، فإن المقفّع لم يَمُتّ إلى الأدب بصلة ، ولم ينهض به دمه إلى مستوى النوابغ ، لفقد استعداده الفطري وما يتبعه ، ولكن ابنه عبد الله ولد ونشأ وشب واكتهل في محيط عربي إسلامي غاصٍ بالعلماء والأدباء ، وأدّبه أبوه أو غيره ، وتثقف ، وكان فيه قابلية واستعداد ، فنبغ في الأدب العربي كما نبغ غيره من أبناء العرب والعجم ، وامتاز بخصائص من غيره كما امتاز غيره منه بخصائص ليست فيه . وكانت ثقافته عربية بحتة ، ولعله لو نشأ في غير هذا العصر والمصر لكانت عبقريته غير عبقريته التي عرفناها .

أثر الأعاجم في الثقافة والعبقرية

وزعم آخرون أن العرب لم يبلغوا ما بلغوه في هذا العصر من النهضة العلمية الفكرية إلا بسبب اختلاطهم بالأعاجم ، وأن هذه النهضة أعجمية أكثر منها عربية ، وهذا غلوٌ شديد يناقض الحقيقة والواقع ، ومما لا ريب فيه أن الأعاجم من فرس وغيرهم ، خالطوا العرب ، وتعلموا العربية ، وأدخلوا كثيراً منها في لغتهم ، حتى كان منهم من يعد شوبها بالعربية مما يورثها عذوبة . قال كيكاوس في كتاب ألفه لتهذيب ابنه : إذا كتبت رسائلك بالفارسية فلتكن مشوبةً بالعربية ، فإن الفارسية الصِّرف لا تعذب في المذاق . ومنهم من استغنى بالقرآن عن غيره من كتب الأعاجم ، فقد أهدى رجل إلى عبد الله بن طاهر كتاباً بالفارسية فقال له : ما هذا ؟ قال : قصة وامق وعذراء وضعها حكماء الفرس لكسرى أنو شروان ، فقال له عبد الله : نحن قوم نتلو القرآن ولا حاجة بنا لمثل هذا الكتاب ، يكفينا كتاب الله وسنة رسوله . وأمر بالكتاب فأُلقي في الماء .

وقد نبغ من الأعاجم عدد كثير وألفوا في الآداب والعلوم العربية كتباً جمة ، وخلفوا آثاراً عظيمة من نظم ونثر فيها ، فكانوا عضداً للنهضة العلمية الأدبية ، ولكنهم لم يكونوا كلَّ أعضادها ، ولم تكن النهضة فارسيةً بحتة ، بل كانت عربية محضة ، لأن أداتها عربية ، وبذرها عربي ، والمَعين الذي يسقيها عربي ، ولولا أن يسطع في بلاد

الأعاجم نور القرآن العربي ، ويجري في عروقها الدين العربي ، وينفث في رُوعها الروح العربي ، لما ظهرت نهضة الأعاجم بهذا النمط الرائع في العصر العباسي ، ويجب ألاّ ننسى أن اللغة العربية كانت معظمَ هذا العصر لغةَ العلم والأدب والحكومة ورجالات الدولة ، وأن علماء الأعاجم وكتابهم وشعراءهم عُنُوا بها عنايةً كبرى .

سير الانشاء

وكان الإنشاء يتبع حياة الأمة ، فكلما أمعنت في التأنق والترف في حياتها ازداد الإنشاء تأنقاً وترفاً ، حتى بلغ في أول هذا العصر وأوسطه من سمو المكانة مالم يبلغه من قبل ولا من بعد .

وساعد على اتساع آفاقه وارتقائه اطلاع العرب على الثقافات الأعجمية ، واستبحارُ العلم ، واتساعُ نطاق الدولة ، وحياةُ الأدباء في بغداد وغيرها ، فكان لهذه العوامل وغيرها مما أشرنا إليه أثرٌ عظيم في اتساع أخيلَة الكتاب والنقاد قرائحهم ، ولطَّفت حياتهم أذواقهم ، فتخيروا شريفَ الألفاظ ، واطرحوا كل حوشيّ ، واستنبطوا عيون المعاني ، وعنُوا بالتنميق والرصف ، وتفننوا في المقدمات والبدء والختام ولم يقتصروا على كتابة الدواوين ، بل استعملوا الإنشاء في أغراضٍ متعددة ، وضمنوه من الآيات والأحاديث ، والأمثال والحكم ، والمصطلحات العلمية ، والإشارات التاريخية ، ما ألبسه حلةً قشيبة ، وكان في مقدمة النابغين فيه في هذا العصر ابن المقفع .

مولد ابن المقفع وموطنه

ولد ابن المقفع بالبصرة ، وهي بلدة إسلامية عربية ، حدثت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كتب إليه عتبة بن غزوان المازني الصحابي سنة ١٤ كتاباً جاء فيه : ولا بد للمسلمين من منزل إذا كان الشتاء شتوا فيه ، وإذا رجعوا من غزوهم لجئوا إليه ، فكتب إليه عمر أن ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء ، واكتب إليّ بصفته ، فكتب إلى عمر : إني قد وجدت أرضاً كثيرة القضة[1] في طرف البر إلى الريف ، ودونها مناقع ، فيها ماء وقصباء[2] .

فلما وصلت الرسالة إلى عمر رضي الله عنه قال : هذه أرض بصرة[3] قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب ، فكتب إليه أن انزلها . فنزلها

---

(١) القِضَّة : الحصى الصغار ، والقِضَة : شجرة من شجر الحمض ، والقَضَّة الحجارة المجتمعة المتشققة (٢) القصباء : جماعة القصب واحدتها قصباءة .

(٣) البصرة جاءت لمعانٍ : منها الحجارة الرِّخوة ، قيل بها سميت هذه البلدة وقيل : أرض كأنها جبل من جص وهي التي بنيت بالمِرْبَد ، وإنما سميت البصرة بصرةً بها ، وقيل : البصرة حجارة صلاب ، وإنما سميت البصرة لغلظها وشدتها .

وفي الشريشي ٢ : ٤٠٠ أن عتبة مر بموضع منها فوجد الكذان ، وهي الحجارة الرِّخوة فقال : هذه البصرة انزلوها باسم الله ، فسميت لذلك البصرة .

وقيل : كانت تسمى في القديم تدمر ... والمؤتفكة لأنها ائتُفكت بأهلها ، أي انقلبت في أول الدهر . ويقال لها البُصَيْرة ، والبصرتان الكوفة والبصرة ، وبصّر تبصيراً : أتى البصرة والكوفة ، والنسبة إليها بَصري وبِصري والثانية شاذة .

وبنى مسجدها من قصب ، وبنى دار إمارتها دون المسجد ، فكانوا إذا غزوا حزموا ذلك القصب ووضعوه حتى يعودوا من الغزو ، ثم يعيدون بناءها كما كان .

ثم شرع في بنائها سنة ١٧ ونزلها المسلمون سنة ١٨ ولم يمض عليها إلا قليل من الزمن حتى أصبحت من حواضر العلم والأدب ، وأزهرت فيها الحضارة العربية .

وقد وصفها خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان فقال : يغدو قانصنا فيجيء بالشَّبُّوط والشِّيم (١) ويجيء هذا بالظبي والظَّليم (٢) ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً (٣) وخزًّا وديباجاً ، وبِرْذَوناً هِملاجاً (٤) وخريدةً مِغناجاً ، بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، أوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب .

فأما الرطب عندنا فمن النخل في مَباركه ، كالزيتون عندكم في مَنابته هذا على أفنانه ، كذاك على أغصانه ، هذا في زمانه ، كذاك في إبّانه ، من الراسخات في الوحل ، المطعمات في المَحْل ، الملقحات بالفحل ، يخرجن أسفاطاً (٥) عظاماً ، وأوساطاً ضخاماً ، كأنما ملئت رِياطاً (٦) ثم

---

(١) الشَّبُّوط والشِّيم : نوعان من السمك . (٢) الظليم : ذكر النعام .

(٣) العاج : ناب الفيل ، والساج : خشب يجلب من الهند .

(٤) البرذون من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب ، والهملاج : حسن السير .

(٥) جمع سَفَط وهو ما يجعل فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء ، وكالجوالق .

(٦) جمع رَيطة وهي الملاءة ، وفي رواية : يخرجن أسفاطاً وأوساطاً .

ينفلقن عن قضبان الفضة ، منظومة باللؤلؤ الأبيض ، ثم تتبدل قضبان الذهب ، منظومة بالزبرجد الأخضر ، ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر ، ثم تصير عسلاً في شنة من سحاء [١] ليست بقربة ولا إناء ، حولها المذاب [٢] ، ودونها الحراب ، لا يقربها الذباب ، مرفوعة عن التراب ، ثم تصير ذهباً في كيسة [٣] الرجال ، يستعان به على العيال .

وأما نهرنا العجب ، فإن الماء يقبل عنقاً [٤] ، فيفيض مندفقاً ، فيغسل غثها [٥] ، ويبدي مبثها ، يأتينا في أوان عطشنا ، ويذهب في زمان رينا ، فنأخذ منه حاجتنا ، ونحن نيام على فرشنا ، فيقبل الماء وله عباب [٦] وازدياد ، ولا يحجبنا عنه حجاب ، ولا تغلق دونه الأبواب ، ولا يتنافس فيه من قلة ، ولا يحبس عنا من علة .

وأما بيوتنا الذهب ، فإن لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور ، نأخذه في أوقاته ، ويسلمه الله تعالى من آفاته ، وننفقه في مرضاته [٧] .

هذا شأنها في صدر الإسلام والعصر الأموي ، وكان يقال لها الفيحاء والرعناء . قال الفرزدق :

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

سميت بذلك تشبيهاً برعن الجبل أي أنفه لما فيه من الميل ، وقيل :

---

(١) الشنة : القربة الخلق . والسحاء : القشر . (٢) جمع مذبة وهي هنة من شعر ذنب الفرس يذب بها الذباب . (٣) جمع كيس وهو وعاء للدراهم والياقوت والدر . (٤) العنق : ضرب من السير فسيح سريع . (٥) الغث : الرديء . (٦) ارتفاع أو موج . (٧) معجم البلدان .

سميت بذلك لكثرة مجرى النهر بها ، أو لما فيها من الخفض بالنسبة إلى البيد ، أو لما في هوائها من تكسر وتغير .

وقد كسرت في أيام خالد القسري فوجد طولها فرسخين في مثلها ، والكوفة ثلثاها .

ولقد عظم شأنها في العصر العباسي وأصبحت مدينة العلم والأدب ، ومبعث العبقرية العربية ، ومجمع النبلاء والنوابغ والفضلاء وفصحاء الأعراب ، وصارت تدعى قبة الإسلام .

وقد قسم في أيام المنصور على من يستوجب العطاء من أهلها ألف ألف درهم ، فأصاب كلُّ رأس درهمين ، فيكون مقدارهؤلاء وحدهم خمسمائة ألف ، عدا من لم يستحق العطاء .

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدّعيها: علم النخل ، فإنهم أعلم الناس به ، وأحذقهم بإصلاحه ، وفيها من أصنافه ما ليس في بلد آخر .

والشاء المعبدية ، وهم يتنافسون فيها حتى تبلغ الشاة خمسين ديناراً ، ويحتفظون بأنسابها ، ويعرفون مقدار حلبها في الصباح والعشي .

والحمام ، وهي معروفة بالهداية ، حتى جاءت من أقاصي بلاد الروم ، ومن مصر إلى البصرة ، وقد يبلغ ثمن الطائر منها تسعمائة دينار . وتباع بيضتها بعشرين ديناراً [1] .

---

(١) الشريشي ٢ : ٤٠٠

وقد وصفها الحريري في المقامة الخمسين البصرية وصفا رائعا على لسان أبي زيد السروجي حيث قال :

يا أهل البصرة ! رعاكم الله ووقاكم ، وقوّى تقاكم ، فما أضوع ريّاكم ، وأفضلَ مزاياكم ، بلدكم أوفى البلاد طهرة ، وأزكاها فطرة ، وأفسحها رُقعة ، وأمرعها نجعة ، وأقومها قِبلة ، وأوسعها دجلة ، وأكثرها نهراً ونخلة ، وأحسنها تفصيلاً وجملة ، دِهليز البلد الحرام ، وقبالة الباب والمقام ، وأحد جناحي الدنيا[1] والمصر المؤسس على التقوى ، لم يتدنس ببيوت النيران ، ولا طِيفَ فيه بالأوثان ، ولا سُجد على أديمه لغير الرحمن ، ذو المشاهد المشهودة ، والمساجد المقصودة ، والمعالم المشهورة ، والمقابر المزورة ، والآثار المحمودة ، والخطط المحدودة ، به تلتقي الفلك والركاب ، والحيتان والضِباب ، والحادي والملاّح ، والقانص والفلاّح ، والناشب والرامح ، والسارح والسابح ، وله آية المدّ الفائض والجزر الغائض .

وأما أنتم فمن لا يختلف في خصائصهم اثنان ، ولا ينكرها ذوشنآن دهماؤكم أطوع رعيةٍ لسلطان ، وأشكرهم لإحسان ، وزاهدكم[2] أورع الخليقة ، وأحسنهم طريقةً على الحقيقة ، وعالمكم علاّمة كل زمان ،

---

(١) يشير إلى قول أبي هريرة رضي الله عنه : الدنيا على مثال الطائر ، فالبصرة ومصر الجناحان ، فإذا خربا وقع الأمر .

(٢) كالحسن البصري ومحمد بن سيرين .

والحجة البالغة في كل أوان ، ومنكم من استنبط علم النحو ووضعه [1] والذي ابتدع ميزان الشعر واخترعه [2] .

وكان المِرْبَد على مقربة من البصرة ، وهو من أجلّ أسواقها ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء ، وكان يعج بالعلماء الفصحاء ، والأدباء والشعراء ، وهو خلف سوق عكاظ .

وقد أنبتت هذه التربة الطيبة طائفةً من أعلام العلم والأدب ، كالخليل بن أحمد ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، والجاحظ ، وحماد بن سلمة ، وابن دُرَيد ، وأبو زيد ، وبشّار ، وغيرهم .

وتخرّج بعلمائها وأدبائها أجل العلماء والأدباء .

منشأ ابن المقفع

يقال : إنه نشأ في ولاء آل الأهتم ، المشهورين بالفصاحة واللسن ، ولم يتبين لي كيف كان هذا الولاء ، لأن أبا موسى الأشعري لما ولي البصرة بعد المغيرة فتح سوق الأهواز عَنوة سنة ١٧ وسبى سبياً كثيراً ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنه لاطاقة لكم بعمارة الأرض ، فخلوا ما بأيديكم من السبي ، واجعلوا عليهم الخراج .

قال: فرددنا السبي ولم نملكهم ، ثم سار ففتح سائر بلاد خوزستان [3] .

---

(١) هو أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو .

(٢) هو الخليل بن أحمد .

(٣) معجم البلدان .

اول نشأته

ضنّ علينا التاريخ بتفصيل نشأته، وفاتحة حياته، فلم نرَ فيما اطلعنا عليه مما كتبه الكاتبون في ابن المقفع إلا جملاً مجملة .

منها أن أباه علمه الفارسية، ثم أخذ يعلمه الكتابة .

وأنه أولع منذ حداثته بالعربية وبالعلم .

ثم أخذ عن جماعة من العلماء والفصحاء، ولم نعلم منهم غير أبي الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي .

وهذا كلام مجملٌ مغلق، لم يبين فيه مبدأ تعلمه، ولا شيوخه، ولا ماعلّمه أبوه وغيره .

اول ماعرف من أمره

أول ماعرف من ابن المقفع في عمل الكتابة أنه كتب لداود بن عمر بن هبيرة على ماقاله صاحب الفهرست ص ١٧٢ وفي ضحى الإسلام أنه كتب ليزيد بن عمر بن هبيرة، وكان واليًا على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ثم كتب لأخيه داود بن عمر بن هبيرة .

وفي تاريخ الطبري ٩ : ١٤٥ أن يزيد بن عمر بن هبيرة كان معه يوم قتل، كاتبُه عمرو بن أيوب وابنه داود، وذلك سنة ١٣٢ وقد قتله جماعة المنصور وقتلوا ابنه داود في يوم واحد .

وفيه أن مروان وجّه يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق سنة ١٢٨ فتكون كتابته ليزيد بعد ذلك العهد .

وسيأتي عن الجهشياري أنه كتب لداود حين كان في كرمان وأنه كتب قبل ذلك للمسبح في نيسابور .

انصاله ببني العباس

ثم لما استتب الأمر لبني العباس اتصل بعيسى بن علي عم المنصور ، وكتب له وهو على كرمان . وكان زراد شتيًا على دين أبيه ، فقال لعيسى ذات يوم: قد دخل الإسلام في قلبي ، وأريد أن أسلم على يدك ، فقال : ليكن ذلك بمحضر من القواد والرؤساء ، فإذا كان الغد فاغدُ عليّ .

ثم حضر طعام العشي على مائدة عيسى ، فجعل يأكل ويزمزم[1] على عادة المجوس ، فكلمه عيسى في ذلك ، فقال : كرهت أن أبيت على غير دين ، فلما كان اليوم الثاني أسلم على يده ، وسمي عبد الله وكني بأبي محمد ، وقد كان اسمه روزبة وكنيته أبا عمرو قبل إسلامه ، كما تقدم .

ويقال : إن إسماعيل بن عليّ جعله مؤدباً لبعض بنيه .

ثم كتب لسليمان بن عليّ عم المنصور أيام ولايته على البصرة ، وقد ولي عليها سنة ١٣٣ ، وظل فيها إلى نحو منتصف رمضان سنة ١٣٩[2]

وكان عبد الله بن علي عمُّ المنصور خرج على ابن أخيه وبايع الناس لنفسه ، فتبعه جماعة كثيرون ، فوجه إليه المنصور جيشاً عرمرماً ،

---

(١) الزمزمة : تراطن العلوج عند الأكل وهم صموت لا يستعملون اللسان ولا الشفة في كلامهم ، ولكنه صوت تديرها في خياشيمها وحلوقها فيفهم بعضها عن بعض .

(٢) لسان الميزان ٣ : ٣٦٦

فانكسر جيش عبد الله ، وانهزم حتى أتى أخاه سليمان بن علي وهو والي البصرة ، وذلك سنة ١٣٧ فآواه وأكرمه ، وأقام عنده زماناً متوارياً هو وقواده ومواليه ، ثم بايع عبد الله وهو بالبصرة عند أخيه سليمان أبا جعفر المنصور سنة ١٣٨ [1]

وفي سنة ١٣٩ عزل المنصور عمه سليمان عن البصرة ، وولى مكانه سفيان بن معاوية المهلَّبي ، وسفيان كان ولاه السفاح البصرة ، وظل فيها إلى أن ولي عليها سليمان بن علي .

فلما ولي سفيان توارى عبد الله وأصحابه خوفاً على أنفسهم ، فبلغ ذلك المنصور فكتب إلى عميه سليمان وعيسى في إشخاص أخيهما عبد الله ، وعزم عليهما أن لا يؤخراه ، وأعطاهما من الأمان لعبد الله ما رضياه ووثقا به ، وكتب إلى سفيان بن معاوية يعلمه بذلك ويأمره بازعاجهما واستحثاثهما بالخروج بعبد الله ومن معه من خاصته ، فخرج سليمان وعيسى بعبد الله وبعامة قواده وخواص أصحابه ومواليه حتى قدموا على المنصور يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ١٣٩ ، فأمر بحبس عبد الله ومن معه من أصحابه وبقتل بعضهم .

وأقام عبد الله في محبسه تسع سنين ، ثم سلمه المنصور سنة ١٤٩ إلى أبي الأزهر المهلَّب بن أبي عبسى فخنقه مع جارية له ثم أمر بهدم البيت عليهما .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٩ ص ١٣٧

ويقال : إن عبد الله بن علي طلب من يرتب له كتاب أمان لا يستطيع المنصور أن ينقضه ، وإن ابن المقفع هو الذي كتب نسخة الأمان ، وكان مما كتبه فيه : ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس [١] ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حل من بيعته .

فأحفظ ذلك المنصور واشتد عليه واضطغنه عليه .

وكان ابن المقفع يستخف بسفيان بن معاوية ، فلما أمكنته الفرصة قتله سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وفي لسان الميزان سنة ١٤٤

سبب قتله

اتفقت كلمة الأدباء على أن سفيان بن معاوية المهلبي هو الذي قتل ابن المقفع في البصرة ، واختلفت في سبب ذلك .

فذهب فريق إلى أنه كان يستخف بسفيان ، وكان هذا كبير الأنف ، فإذا دخل عليه قال : السلام عليكما ، يريد سفيان وأنفه . وقال له مرة : ما تقول في رجل خاف زوجاً وزوجة ؟ وقال سفيان ذات يوم : ماندمت على سكوت قط ، فقال له ابن المقفع : الخرس زين لك فكيف تندم عليه ؟

فكانت مراجل الحقد تغلي في قلب سفيان عليه ، ولكنه كان يكظم ذلك حتى سنحت له الفرصة فقتله حرقاً بالنار [٢] وشفى غليل نفسه منه .

---

(١) جمع حبيس وهو ما وقفه صاحبه .

(٢) الفهرست ١٧٢

فأحفظ قتله سليمان وعيسى ، وخاصما سفيان إلى المنصور واستعدياه عليه[1] فاحضراه إليه مقيداً ، وجاء الشهود فشهدوا أنهم رأوا ابن المقفع دخل دار سفيان ولم يخرج منها .

فقال لهم المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر ، ولكن إن قتلت سفيان ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت — وأشار إلى بابٍ خلفه — ماذا تروني أصنع بكم أأقتلكم بسفيان ؟ نخاف الشهود ورجعوا عن شهادتهم ، وفطن سليمان وعيسى إلى أن للمنصور ضَلَعاً في قتله .

وذهب آخرون إلى أن المنصور وجد عليه بسبب الأمان الذي كتبه لعميه وخاصة لقوله فيه : والناس في حلٍّ من بيعته ، فأوعز إلى سفيان بقتله ، وكان سفيان يعادي ابن المقفع فقتله ، ولذلك تهاون بأمره لما استعداه عليه سليمان وعيسى[2]

ومال فريق إلى أن سبب قتله زندقته .

وقال الجاحظ في رسالته أخلاق الكتاب : إن عبدالله بن المقفع كتب لبني العباس ، فأغرى بهم عبد الله بن علي ففطن له وقتل ، وهدم البيت على صاحبه .

والظاهر من قوله هذا ومن قول ابن أبي أصيبعة الآتي أن ابن المقفع كتب لأبي جعفر المنصور ، وأن ابن المقفع كان يكيد للمنصور ،

---

(١) في لسان الميزان أن سليمان هو الذي استعدى المنصور وأحضر الشهود .

(٢) أمالي المرتضى ١ : ٩٤

ويكون في شيعة خصومه ، ويظهر الممالأة لهم عليه ، لأنه أغرى به عمه عبدالله ، ثم تشدد في كتابة الأمان له ، ولبس المنصور ممن يخفى عليه مثل هذا .

ولا يبعد أن يكون سفيان آنس من المنصور الرضى بقتل ابن المقفع فقتله ، وأن المنصور لم يأمر بقتله ، ولكنه لم يؤاخذ سفيان به .

ولو أن المنصور أراد أن يقتله بنفسه لما احتاج إلى الاستعانة بسفيان ولا إلى أن يعمد إلى مثل هذه الحيلة ، لأن ابن المقفع ضعيف ليس له شوكة يخشى أذاها ، ولا شيعة يخاف شرها ، ومن قتل أبا مسلم الخراساني على شدة سلطانه ، وكثرة أنصاره وأعوانه ، ولم يبال بأحد لا يخشى أن يقتل ضعيفاً لا ناصر له كابن المقفع .

ويجوز أن يكون خاف من معاتبة عميه فعمد إلى ذلك .

وكيفما كان الأمر فإن للمنصور ملء الحق في أن لا يدع صفحة تبدو في معارضته إلا أزالها عن مكانها .

وقد ذكر الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب سبب قتله وكيفيته ، وسبب سخط سفيان بن معاوية عليه ، وما دار بين المنصور وعميه من أجل كتاب الأمان ، وما شق على المنصور من ذلك الكتاب ، وما نقمه من ابن المقفع بصورة واضحة ، خلاصتها أن عبد الله عم المنصور لما هرب منهزماً قصد أخويه سليمان وعيسى وهما بالبصرة ، فكاتبا أبا جعفر في أن يؤمنه ، فأنفذ سليمان كاتبه عمرو بن أبي حليمة في ذلك ، واستقر الأمر على

إعطائه الأمان، فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد المهلبي وأمره بضغطهم والتضييق عليهم حتى يشخصوا بعبد الله بن علي إلى حضرته، وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان لعبد الله، فعملها ووكدها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها، وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتب، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط، ولم يتهيأ لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط احتياط ابن المقفع.

سبب غضب المنصور عليه

وكان الذي شق على أبي جعفر أن قال في النسخة: يوقع بخطه في أسفل الأمان. وإن أنا نلت عبدالله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها: تصريحاً أو كتابة أو بحيلة من الحيل فأنانفيٌّ من محمد بن علي بن عبدالله ومولود لغير رَشدة[1] وقد حلَّ لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءةُ مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين. وهو مبرئٌ من

(١) يقال هذا ولد رَشدة إذا كان لنكاح صحيح كما يقال في ضده ولد زَنية بفتح أولها وبكسره والفتح أفصح، وفي الحديث: مَنِ ادَّعى وَلَداً لِغَيْرِ رِشْدَةٍ فَلاَ يَرِثُ وَلاَ يُورَثُ.

الحول والقوة ، ومدّعٍ إن كان أنه كافر بجميع الأديان، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب ، والمناكح والمركب ، والرق والملك والملبس ، على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطي ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به .

هذا ما جاء في كتاب الأمان من التحرز والتحفظ والتشدد . وفيه ما لا يليق أن يواجَه بمثله مثل المنصور ، من الإقرار على نفسه بالزنا والتبرؤ من أبيه ، والخروج من كل دين ، وتحريم المنكح والمأكل والمركب وغيرها : وهو كما ترى على غاية من الاحتياط ، ولكن المنصور كان داهية باقعة ، استطاع بدهائه وإربته أن يجعله كأن لم يكن ، وأن لا يلتزم بشيء مما فيه ، ويحسن الخروج من ذلك بأسلوب حكيم . فإنه قال : إذا وقعت عيني عليه فهذا الأمان له صحيح ، لأني لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتي له فيسير في البلاد ويسعى عليّ بالفساد . وتهيأت له الحيلة عليه من هذه الجهة ، ثم قال المنصور : من يكتب له هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع كاتب عيسى بن عليّ ، فقال . فما أحد يكفينيه .

سبب غضب سفيان على ابن المقفع

وكان سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة . منها أنه كان يهزأ به ويسأله عن الشيء بعد الشيء ، فإذا أجاب قال له أخطأت ويضحك . فلما كثر ذلك على سفيان غضب فافترى عليه ، فقال له ابن المقفع : يا بن المغتلمة والله ما اكتفت أمك برجال أهل

العراق حتى تعدّتهم إلى أهل الشام . وكانت أم سفيان ميسور بنت المغيرة بن المهلب . وكان تزوجها القاسم بن عبد الرحمن بن عطاء الأشعري . ومنها أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كان استعمل سفيان بن معاوية على نيسابور ، وكان عليها قبله المسبح بن الحَوَاري وكان ابن المقفع يكتب للمسبح ، ولما قرب سفيان من المسبح أرسل المسبح إليه إن شئت أعطيتك خمسمائة ألف درهم وتنصرف عني ، وإن شئت فأعطني خمسمائة ألف أخليك والعمل ، فقال سفيان : لا أعطيك شيئاً ولا أقبل منك شيئاً ، فسفر بينهما ابن المقفع واحتال على سفيان ودافعه وعلله حتى استعد المسبح وكاتب الأكراد وجميع أطرافه وقوي أمره ، فلما استظهر امتنع على سفيان وقال له : انصرف فليس لك عندي شيء ، فأبى سفيان أن ينصرف واقتتلا ، فضرب سفيان المسبح فأطار عمامته ولم يصل السيف إليه ، وضرب المسبح سفيان فكسر تَرْقُوَته [1] وانهزم إلى دَوْرَق [2] فحقد ذلك أيضاً على ابن المقفع .

فلما قال المنصور ماقال كتب به الخصيب إلى سفيان فعمل على قتله إذا أمكنه ذلك .

كيف استطاع سفيان قتله وصورة قتله

فقال عيسى بن علي يوماً لابن المقفع : صر إلى سفيان فقل له كذا وكذا

---

(١) الترقوة العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق وهو مابين المنكب والعنق ولا تكون الترقوة إلا للإنسان خاصة .

(٢) دورق : بلد بالأهواز وهو قصبة كورة سُرّق .

فقال له: وجّه معي إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي، فإني لا آمن سفيان، فقال: كلا، انطلق إليه ولا تخف، فإنه لم يكن ليعرض لك وهو يعلم مكانك مني، فقال ابن المقفع لإبراهيم بن جبلة: انطلق بنا إلى سفيان نبلغه رسالة الأمير ونسلم عليه، فإني لم آته منذ قدمنا، وأخاف أن يظن بي مَوْجِدَة وعداوة. فمضيا فجلسا على باب الديوان، وجاء عمر بن جميل فجلس إليهما، فخرج غلام لسفيان فنظر إليهم ثم رجع، ثم عاد فسارّ عمر بن جميل وقال له: يقول لك الأمير ادخل الديوان فاجلس فيه، فإذا انتصف النهار فمرّ بي، فقام فدخل الديوان، وجاء الإذن فأذن لإبراهيم بن جبلة فدخل، ثم خرج فأذن لابن المقفع. فلما دخل عدل به إلى مقصورة أخرى فيها شبرويه الملاديسيّ وعتاب المحمديّ، فأخذاه فشداه كتافاً، فقال إبراهيم لسفيان: ائذن لابن المقفع. فقال للآذن: ائذن له فخرج الآذن ثم رجع فقال قد انصرف. فقال سفيان لإبراهيم: هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله، ما أشكّ في أنه قد غضب.

ثم قام سفيان وقال لإبراهيم: لا تبرح، ودخل المقصورة التي فيها ابن المقفع فقال له لما رآه: وقعت والله، فقال: أنشدك الله، فقال: أمي مغتلمة كما ذكرت إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد قط. وأمر بتنور فسُجِر، ثم أمرهما فقطعا منه عضواً ثم ألقاه في التنور وهو يراه، ولم يزل يقطعه عضواً عضواً ويلقيه في التنور وهو يراه ويقول: والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة، ولما أمر بتقطيعه قال له ابن المقفع: والله إنك لتقتلني فتقتل بقتلي ألف نفس، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد، ثم قال:

إِذَا مَا مَاتَ مِثْلِي مَاتَ شَخْصٌ يَمُوتُ بِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيرُ
وَأَنْتَ تَمُوتُ وَحْدَكَ لَيْسَ يَدرِي بِمَوْتِكَ لاَ ٱلصَّغِيرُ وَلاَ ٱلْكَبِيرُ

فلما فرغ منه رجع إلى إبراهيم فحدثه ساعة، ثم خرج إبراهيم. فقال له غلام ابن المقفع: ما فعل مولاي؟ قال: ما رأيته، قال: بلى، قد دخل بعدك، فقال: ما رأيته. ورام الرجوع إلى سفيان فحُجب وانصرف، وانصرف معه غلام ابن المقفع وهو يصيح ويبكي ويقول: قتل سفيان مولاي.

مطالبة عيسى بدم ابن المقفع

فدخل إبراهيم على عيسى بن علي ومعه غلام ابن المقفع يبكي، فقال عيسى لإبراهيم: ماهذا؟ فخبره الخبر على جهته، فقال له عيسى: ارجع إليه فقل له: خل عن ابن المقفع إن لم تكن قتلته، وإن كنت قتلته فوالله لأطلبنك بدمه ولا أدع جهداً، فصار إلى سفيان وأبلغه ما قال عيسى، فقال: ما رأيته.

قلق سفيان وتوسله للخلاص من المنصور

ثم دعا سفيان عمر بن جميل من الديوان. قال عمر: فدخلت عليه وهو متغير على خلاف ما كنت أعرف من انبساطه. فقال لي: ألا تعجب من ابن عمك؟ يأتيني برسالة عيسى بكذا وكذا. فقلت: لا ذنب له فيما قال، إنما أرسل برسالة فأداها، فقال لي: صدقت. فما الرأي عندك؟ فقلت: ليس لمكذوب رأي، ولا أدري ما أشير به عليك إلا أن تصدقني، إن

كنت تقدر على ابن المقفع فلي رأي، وإن كنت لاتقدر عليه فلي رأي آخر، فقال: إنه لا يرى أبداً، فقلت في نفسي: أحمقٌ بك، لم تستطع أن تغيب عليّ فتقول: أشر عليّ بالأمرين جميعاً إن قدر عليه وإن لم يقدر عليه، ثم قلت له: إن عيسى لايقدر لك على مضرة هاهنا، لأنك الوالي، ولكنه سيكلم أمير المؤمنين بالكوفة، وليس أحد أخوف عليك من أبي أيوب سليمان بن أبي سليمان الكاتب [1]، فإنه إن عاونه ضرك، وإن كف عنك رجوت أن لاينال عيسى منك مايريده، فاكتب إلى أبي موسى بن أبي الزرقاء، تعلمه أن عيسى بن علي اتهمك من أمر ابن المقفع بما لا علم لك به، وتسأله أن يدفع عند أمير المؤمنين، وأكتب أنا أيضاً إليه، فقال: نِعم ما رأيت، وأمر قوماً فنادوا في الطرق أن سفيان بن معاوية قتل ابن المقفع. ووجه بنو عليّ إلى المنجاب بن أبي عيينة ليرتهنوه بابن المقفع، فمنعه سفيان من إتيانهم. فصاروا إلى المنصور فكلمه عيسى في ابن المقفع، وقال: قتله سفيان بن معاوية.

براءة المنصور من قتله وبحثه عنه

ثم أنفذ المنصور أبا الخصيب وقال له: ائتني بسفيان أو بابن المقفع وكتب إليه: يا بن أبي سفيان: قد وجهت إليك بأبي الخصيب، فإن كان ابن المقفع حياً فادفعه إليه وأنت على عملك، وإن لم تدفعه إليه فقد

---

(١) سليمان بن مخلد أبي سليمان المورياني، كان كاتباً للمنصور ثم استوزره، وكان ملماً في الطب والكيمياء والنجوم والحساب، إلا الفقه توفي سنة ١٥٤ وترجمته في الجهشياري والوفيات.

أمرته بعزلك وبحملك . فلما انتهى أبو الخصيب إلى سفيان قال له : ما أقدر عليه ، فقيده وحمله .

وخرج مع سفيان رجالٌ من أهل بيته ، فأشار عليهم رجل أن يلقوا أبا أيوب فيكلموه كلاماً خشناً يرهب معه منهم ، ويتخوف ناحيتهم وأن لا يسرفوا عليه فيُحفظوه ، ولا يضعفوا في مخاطبته فيطمعوه ، ففعلوا ذلك وقال له سفيان : أنا أعلم أني إن سلمت فبك أسلم ، وإن عطبت فوالله إني وأهل بيتي نعلم أني بك عطبت ، وبرأيك أقتل . فارتاع أبو أيوب وقال : أنا ؟ قال : نعم ، لأنك تقدر على أن تدفع عني ، فقال : لست أدع القيام بأمرك ، وقد ألقى إليّ موسى بن أبي الزرقاء طرفاً من عذرك ، وكسر ذلك أبا أيوب عن نصرة عيسى ، وعيّث من أمر سفيان ودفع عنه . وأمسك عيسى عن الكلام في أمر ابن المقفع ، وأطلق المنصور سفيان وعاد رأيه له .

وما قدمناه عن الجهشياري صريحٌ في الأسباب التي أوقدت جذوة الحقد في قلب سفيان على ابن المقفع ، وقد قدمنا قبلاً بعض ما كان يستخفّ به بسفيان وأنفه ، ومثل سفيان لا يقال له يا بن المغتلمة ، وهو وأمه من أسرة عريقة في الشرف والنبل والنجدة ، ولا يستهان بكيده وبأسه ، ولا تخفى عليه مدافعة ابن المقفع حتى يستعد عدوه ويستظهر عليه ، ولا شك أن ابن المقفع ارتكب مع سفيان ذنوباً لا تقال عثرتها ، ولا يغضي عليها مثله . ولسنا نرمي بهذه الكلمة إلى التماس المعذرة لسفيان في

قتله ، فقد كان الأليق به أن لا ينتقم بهذه الصورة المنكرة ، وإنما نريد أن نبين أن ابن المقفع كان شديد الغفلة ، سليم الطوية ، لا يحسب لغير وقته حساباً .

وكلام الجهشياري صريح في أن المنصور لم يكن له يد في قتله ، وإن وقع في كلامه ما يشعر برضاه به ، وأن قتله كان عن غير إيعاز منه ولا علم به . وأنه لم يتهاون بأمره ، وإنما أثر فيه أبو أيوب فلبس عليه الأمر ، وأسكت عيسى عن مطالبته بدمه ، فلم ير مايوجب القصاص على سفيان .

وذكر الجهشياري أيضاً مايدل على أن لأبي أيوب ضلعاً في قتل ابن المقفع ، فقد قال في كتابه هذا : كان حماد عجرد[1] صديقاً لابن المقفع ، فذكر حماد أن الذي قتل ابن المقفع أن أبا جعفر قال يوماً لأبي أيوب – وقد أنكر عليه شيئاً : كأنك تحسب أني لا أعرف موضع أكتب الخلق وهو ابن المقفع مولاي ، فلم يزل أبو أيوب خائفاً له يسعى ويدبر في أمره حتى قتله . ولا يبعد أن يكون هذا أوعز إلى سفيان ثم رتب الأمر حتى أنفذه منه

---

(١) هو من مخضرمي الدولتين ، وكان مولى لبني أسد بن عامر ، شاعراً نبيلاً من كتاب الرسائل ، كتب ليحيى بن محمد بن صول بالموصل ، ثم لعقبة بن سلم بالبحرين ، توفي نحو سنة ١٦١

زندقة ابن المقفع وعقيدته

قضى ابن المقفع معظم حياته وهو زراد شتي مجوسي ، ثم أسلم على يد عيسى بن علي عم المنصور كما تقدم .

والظاهر مما نقله العلماء والأدباء أنه كان يجتمع بالزنادقة في خلواتهم ، ويخالطهم في مجالسهم ومجامعهم ، حتى نبه الناس إلى اتهامه بالزندقة ، وجعلوا يراقبون أقواله وأعماله ، حتى إذا بدر منه مايورث شبهةً أو ريبةً دوّنوها في صحيفته ، حتى ملئت بالشواهد والأدلة .

ويخيّل إليّ أن ابن المقفع كان سليم القلب ، شديدَ الغفلة عن التوقي من مثل ذلك ، قليلَ الاكتراث بخصومه ، قليلَ الابتعاد عن مواطن الريبة ، ويشهد لهذا قول الجاحظ الآتي فيه إنه لا يعرف من أين غر المغتر ، ووثق الواثق ، وقد اشتهر بالزندقة وعُدّ في جملة الزنادقة ورثى بعضهم ، وأتى بما يؤيد هذه الشهرة ، فكادت الكلمة تتفق على أنه زِنديق .

قال في الأغاني نقلاً عن الجاحظ : كان والبة بن الحباب ، ومطيع ابن إياس ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي ، وحفص بن أبي وردة ، وابن المقفع ، ويونس ابن أبي فروة ، وحماد عَجْرَد ، وعلي بن الخليل ، وحماد ابن أبي ليلى الراوية ، وابن الزِبرِقان ، وعمارة بن حمزة ، ويزيد بن الغيض وجميل بن محفوظ ، وبشار المرعّث ، وأبان اللاحقي — ندماء يجتمعون على

الشراب وقول الشعر ، ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً وكلهم متهم في دينه . ونقل ذلك عن المرتضى في أماليه ج ١ ص ٩٠ ببعض زيادة ونقص .

وفي لسان الميزان ٣:١٧٣ . قال الشريف أبو القاسم المراغي في كتاب غريب الفوائد : كان حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبدالله بن المقفع ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وعلي بن الخليل الشيباني – مشهورين بالزندقة والتهاون بأمر الدين .

ومرّ ابن المقفع ببيت نارٍ للمجوس بعد أن أسلم ، فلمحه وتمثل بقول الشاعر :

يابيتَ عاتكةَ الذي أتعزّلُ ... حذرَ العدى وبكَ الفؤاد موكَّلُ
إني لأمنحك الصدودَ وإنني ... قسماً إليكَ مع الصدودِ لأميلُ[1]

ولما مات عبدالكريم بن أبي العوجاء[2] قال ابن المقفع يرثيه :

رزئنا أباعمرو ولاحيَّ مثله ... فلله ريبُ الحادثات بمن وقعْ
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا ... ذوي خلّةٍ مافي انسدادِ لها طمعْ
فقد جرّ نفعاً فقدُنا لك أننا ... أمِنّا على كُلِّ الرزايا من الجزعْ

وروى أحمد بن يحيى ثعلب أن ابن المقفع قال هذه الأبيات يرثي بها

---

(١) أمالي المرتضى ج ١ ص ٩٤

(٢) شرح الحماسة للتبريزي .

يحيى بن زياد ، وقال : البيت الأخير منها يدل على مذهبهم في أن الخير ممزوج بالشر ، والشرّ ممزوج بالخير .

وقال الأخفش : الصحيح أنه يرثي بها ابن أبي العوجاء .

ولم يصل إلينا شيء كثيرٌ مما استدل به على زندقته، ولكن المرتضى يروي في أماليه ج ١ ص ٩٣ عن المهدي أنه قال : ماوجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع . ونحوه في لسان الميزان .

والمهدي أعلم النـاس بذلك ، وأصدقهم حديثاً ، لأنه كان يتقصى الزنادقة ويتتبع أخبارهم ، ولا يمكنه أن يقول كلمته هذه من غير تمحيص ولا تثبت .

أما كتبه وآثاره فهي بَرآء من مَسحة المجوسية ، خِلوٌ من لوث الزندقة ، وحيثما أجلتَ طرفك في كتبه لا تجد إلا أشعة الإسلام والأخلاق الفاضلة تلمع من تضاعيف سطورها ، وحيثما قلبت صفحات منها لا تجد إلا معيناً من آداب القرآن وآداب الإسلام يتدفق بين كلماتها .

ولو جُهل صاحبها واستنطقت هذه الآثار لدلت على أنها انبجست من قلبٍ مملوء بالإيمان والإسلام .

وليس من المحال أن يكون في نفسه شيء من الشُّبَه التي تركها فيها دينه الأول ، ولكن إخراج من آمن عهداً طويلاً من حظيرة الإسلام يعوزه الدليل الواضح والحجة القـاطعة ، إذ لا يخرج من الدين إلا ما أدخل فيه .

ولم يصح عن ابن المقفع ما يوجب الجزم بمروقه من الدين ، على أن الرمي بالإلحاد والزندقة سلاح قديم يحارَب به أهل الفضل في كل عصر ومصر ، وشِنشنةٌ معروفةٌ من أخزم .

* * *

والظاهر من كلامه في كتبه أنه كان ينزع إلى الجبر لأنه يقول[1] في كتابه كليلة ودمنة : يجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر ، ويعلم أن ما كتب سوف يكون .

ويقول[2] : قال دمنة : حدث ما قدر وهو كائن ، ومن ذا الذي غالب القدر ؟ لقد علمت أنه لا يستطيع أحدٌ لأحدٍ ضراً ولا نفعاً ، وأنه لا شيءَ من الأشياء صغيراً ولا كبيراً يصيب أحداً إلا بقضاء وقدرٍ معلوم .

ويقول[1] : ليس ينبغي للعاقل أن يقنط وييأس من رحمة الله وفضله فيما لا يناله ، فربما ساق القدر له رزقاً هنيئاً وهو غافل عنه لا يدري به ولا يعلم وجهه .

ويقول[3] : أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزقٍ واسعٍ ومالٍ كثير .

ويقول[2] : والقدر هو الذي يسلب الأسد قوته وشدته ويدخله في القبر ، وهو الذي يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج ، وهو الذي يسلط على الحية ذات الحُمَة من ينزع حُمَتها ويلعب بها ، وهو الذي

---

(١) باب عرض الكتاب (٢) الأسد والثور (٣) باب برزويه

يصير العاجز حازماً، ويثبط السهم المطلق، ويوسع على المقتر، ويشجع الجبان، ويجبن الشجاع، عند ما تعتريه المقادير بالعلل التي اتفقت لها.

ويقول [1]: ما يغني حذرٌ من قدر ولا يجدي الكَيْس مع المقادير شيئاً.

ويقول [2]: لقد علمت أنه لا يستطيع أحدٌ لأحد ضراً ولا نفعاً، وأنه لا شيء من الأشياء صغيراً ولا كبيراً يصيب أحداً إلا بقضاء وقدر معلوم، وكما أن خلق ما يخلق، وولادة ما يولد، وبقاء ما يبقى ليس للخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى، وهلاك ما يهلك. وليس لك في الذي فعلت بابني ذنب، ولا لابني فيما صنع بابنك ذنب، إنما كان ذلك كله قدراً مقدوراً، وكلانا له علة وسبب، فلا نؤاخذ بما أتانا به القدر.

ويقول [3]: ولا ينفع الحذر ولا الاحتراس مع القدر، إن أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر، والذي قدر على الإنسان يأتيه على كل حال، والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور.

ويقول: وما أصاب الإنسان في هذه الدنيا من خيرٍ وشرٍ إنما هو بقضاء وقدرٍ من الله عز وجل .. إن الذي رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير إنما هو بقضاء الله وقدره .. ألا تعلم أن القدر غالبٌ على كل شيء، لا يستطيع أحد أن يتجاوزه.

---

(١) الحمامة المطوقة. (٢) الملك والطائر فنزة (٣) ابن الملك وأصحابه.

ويقول[1] : لا تدخلن عليك شيئاً من الهم والحزن ، فإنهما لا يردان شيئاً مقضياً .

* * *

وفي كلامه كثيرٌ من الشواهد الدالة على قوة إيمانه بالله واليوم الآخر ، والزهادةِ في الدنيا والإعراض عنها ، والرغبة في الآخرة ورجاء الثواب فيها ، وما شاكل ذلك ، مما لا يصدر إلا عن قلبٍ مفعمٍ بالإيمان .

من ذلك قوله[2] ويقال : من كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه ، ومن كان سعيه لدنياه خاصة فحياته عليه ، ومن كان سعيه لآخرته فحياته له . ويقال في أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيها منها أمر دينه .

وقوله في باب الأسد : إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور ، لن يدركها إلا بأربعة أشياء ، أما الثلاثة التي يطلب ، فالسعة في الرزق ، والمنزلة في الناس ، والزاد للآخرة . وأما الأربعة التي يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجهٍ يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ، ثم استثماره ، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان ، فيعود عليه نفعه في الآخرة .

وقوله[3] : فإنه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمرِ الكفورَ للحسنى ، والجريءَ على الغدر ، والزاهد في الخير ، والذي لا يوقن بالآخرة . وينبغي أن يجزى بعمله . . وأما من ينبغي تركه ، فهو من عرف بالشراسة

(١) إيلاذ وبلاذ وايراخت (٢) عرض الكتاب . (٣) الأسد وابن آوى .

ولؤم العهد. وقلة الشكر والوفاء، والبعد عن الرحمة والورع، واتصف بالجحود لثواب الآخرة.

* * *

وفي كلامه كثير من الحض على مكارم الأخلاق التي عدّها الإسلام من المكارم، والحث على اجتناب الأخلاق الذميمة التي عدها الإسلام من المساوئ.

فهو يقول[1]: فكففت يدي عن الضرب والقتل والسرقة، وزجرت نفسي عن الكبر والغضب، ونزّهت قلبي عن الحقد والبغض والخيانة، وصنت لساني عن الكذب والبهتان والغيبة والنميمة وكل أمر مكروه، وأضمرت في نفسي أن لا أبغي على أحد، ولا أكذّب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب، وأن لا إله إلا الله الفرد الصمد، يكافئ على الخير بالخير، وعلى الشر بالشر، وأن لا بد من المسألة والحساب. فلم أزد في الدنيا وشهواتها نظراً، إلا ازددت فيها زهادة ومنها هرباً، ووجدت النسك هو الذي يمهد للمعاد، كما يمهد الوالد لولده، ووجدته هو الباب المفتوح إلى النعيم المقيم، ووجدت الناسك قد تدبر فعلته بالسكينة والوقار فشكر وتواضع، وقنع فاستغنى، ورضي فلم يهتم، وخلع الدنيا فنجا من الشرور، ورفض الشهوات فصار طاهراً، وطرح الحسد فوجبت له المحبة، وانفرد بنفسه فكفي الأحزان وسخت نفسه بكل شيء، واستعمل العقل فأبصر العاقبة فأمن الندامة، واعتزل الناس فسلم منهم ولم يخفهم..

---

(١) باب برزويه

ويقول[1] : ليس إلى الغدر به سبيل بعد الأمان الذي جعلته له ، وبعد إكرامي له وثنائي عليه ، وإن غيرت ما كان مني وبدلته فقد سفهت رأيي ، وجهلت نفسي ، وغدرت بذمتي ، ونقضت عهدي ...

ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف الذي يغنيه ، وطمحت عينه إلى ما سوى ذلك ، ولم يتخوف عاقبته ، كان كالذباب الذي لا يرضى بالشجر والرياحين ، ولا يقنعه ذلك ، حتى يطلب الماء الذي يسيل من أذن الفيل فيضربه الفيل بأذنه فيهلكه .

ما أرى إلا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال ، فإنه ليس للمصلي في صلاته ولا للمحتسب في صدقته ، ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه ، إذا كانت مجاهدته على الحق .

لا خير في القول إلا مع العمل ، ولا في الفقه إلا مع الورع ، ولا في الصدقة إلا مع النية .. ولا في الحياة إلا مع الصحة ، ولا في الأمن إلا مع السرور ...

ومن الحمق الحرص على التماس الإخوان بغير الوفاء لهم والتماس الآخرة بالرياء ، ومودة النساء بالغلظة ، ونفع النفس بضر الغير .

ويقول : [2] سمع كليلة يعاتب دمنة على ما كان منه ويلومه في النميمة ، واستعمالها مع الكذب والبهتان ...

---

(١) باب الأسد والثور

(٢) الفحص عن أمر دمنة .

أحمد الناس عاقبةً في الدنيا والآخرة أكتمهم للسر .

وقد أمر العلماء بالعفو عن الجاني ، والصفح عن المذنب ، ولكنهم قد نهوا عن اغتفار الجرم العظيم ، والذنب الكبير .

ومن صحب الأشرار وهو يعلم حالهم كان أذاه من نفسه ، ولذلك انقطعت النساك بأنفسها عن الخلق واختارت الوحدة على المخالطة ، وحبّ العمل لله على حب الدنيا وأهلها ، ومن يجزي بالخير خيراً وبالإحسان إحساناً إلا الله ؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس ، كان حقيقاً أن يحظى بالحرمان ، إذ يخطئ الصواب في خلوص العمل لغير الله ، وطلب الجزاء من الناس .

ويقول :[1] فإن من الناس من لا ينبغي تركه على حال من الأحوال ، وهو من عُرف بالصلاح ، والكرم وحسن العهد والشكر ، والوفاء والمحبة للناس ، والسلامة من الحسد ، والبعد عن الأذى ، والاحتمال للإخوان والأصحاب ، وإن ثقلت عليه منهم المؤونة . وأما من ينبغي تركه فهو من عُرف بالشراسة ولؤم العهد ، وقلة الشكر والوفاء ، والبعد من الرحمة والورع واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها .

ويقول :[2] الذين يطلبون ما لا يقدرون عليه ثلاثة : من لا ورع له وهو يرتجي ثواب الأبرار ، والبخيل الذي يلتمس ببخله أن ينال

---

(١) الأسد وابن آوى والناسك .

(٢) ايلاذ وبلاذ .

منزلة السخي، والفاجر الذي يسفك الدماء ويأمل أن روحه روح الشهداء .

ويقول في خاتمة الكتاب : ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وأمثال هذا كثيرٌ في كلامه لاسيما كليلة ودمنة .

فهو يحضّ على البر ، والصدق ، والوفاء ، والسخاء ، والأمانة ، واحتمال الصديق ، وحسن المعاشرة ، وكتم السر ، وما شا كلها .

وينهى عن الكذب والغدر ، والبخل والخيانة ، والضجر من الإخوان وإفشاء السر ، والنميمة والوشاية ، والغش والخديعة والمكر ، وماجانسها .

وهذه هي عقيدة الإسلام ، وأسلوبه فيها أسلوب الإسلام ، وهذا كله يؤيد أن ابن المقفع كان مسلماً حقاً ، وأن اتهامه بالزندقة لم يكن إلا من مخالطة المتهمين بها .

وأن كليلة ودمنة من وضعه ، لأنه طافحٌ بالشعور الإسلامي ، مكتظٌ بالعقائد الإسلامية .

حتى إن صور المقاضاة فيه هي طريقة القضاء عند المسلمين ، وآداب القضاء هي آدابه عند المسلمين .

فقد ذكر في باب الأسد والثور أن الخب والمغفل ترافعا إلى القاضي فادعى الخب أن المغفل أخذها ، وجحد المغفل ، فقال للخب : ألك على دعواك بينة ؟ قال : نعم .

وكذلك قال في باب الفحص عن أمر دمنة : فلما سمع الأسد كلام أمه أمر أن يحضر النمر وهو صاحب القضاء ، فلما حضر قال له وللجواس العادل : اجلسا في موضع الحكم ، وناديا في الجند أن يحضروا وينظروا في

حال دمنة ، ويبحثوا عن شأنه ، ويفحصوا عن ذنبه ، ويثبتوا قوله وعذره في كتب القضاء ، وارفعا إليّ ذلك يوماً فيوماً . . . ثم أمر القاضي أن يؤتى بدمنة ، فأُتي به ، فوقف بين يديه والجماعة حضور ، فلما استقرّ به المكان نادى سيد الجمع : هذا القاضي قد أمر أن يجلس مجلس القضاء ويبحث عن شأن دمنة ، فمن علم منكم شيئاً في أمر دمنة من خيرٍ أو شرٍّ فليقل ذلك ، وليتكلم به على رؤوس الجمع والأشهاد ، ليكون القضاء في أمره بحسب ذلك ، فإذا استوجب القتل فالتثبت في أمره أولى ، والعجلة من الهوى ، ومتابعة الأصحاب ذل .

وقد قيل : إنه من كتم شهادة ميت أُلجم بلجام من نار يوم القيامة ، فليقل كل واحد منكم ما علم .

وقد قالت العلماء : من يشهد بما لم يرَ ، ويقل ما لم يعلم ، يصبه ما أصاب الطبيب الذي قال لما لا يعلمه : إني أعلمه .

وقال في هذه القصة : إن صالحي القضاة لا يقطعون بالظن ولا يعملون به ، لا في الخاصة ولا في العامة ، لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق شيئاً . . .

وإنما ضربت لك هذا المثل أيها القاضي لتزداد علماً بوخامة عاقبة الشهادة بالكذب في الدنيا والآخرة . . .

فقال كل واحد منهما : قد علمت أن شهادة الواحد لا توجب حكماً .

وهذا وأمثاله أشبه بطريقة المقاضاة والمحاكمة عند المسلمين ، من الليلة بالليلة ، والغراب بالغراب .

أخلاق ابن المقفع

كان ابن المقفع عفيفاً ، وافرَ المروءة ، سهل الطبع ، شديدَ الوفاء ، وكان جواداً ، جيدَ الرأي .

فقد بلغه أن جاراً له يبيع داره في دَين ، وكان يجلس في ظلها ، فقال : ماقمت إذن بحرمة ظل داره إن باعها معْدِماً ، وبتُّ واجداً ، ثم حمل إليه ثمنها وقال : لاتبع (1)

وذكر في محاضرات الأدباء ١ : ٢٣ أن سعيد بن سَلْم قال : قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع ، فرحب بي وقال : ماتصنع هاهنا ؟ فقلت: ركبني دَين ، فقال : هل رأيت أحداً ؟ قلت : رأيت ابن شُبْرُمَة فوعدني أن أكون مربياً لبعض أولاد الخاصة ، فقال : أفٍّ له أيجعلك مؤدباً في آخر عمرك ؟ أين منزلك ؟ فعرّفته ، فأتاني في اليوم الثاني وأنا مشغول بقوم يقرؤون عليّ ، فوضع بين يدي منديلاً ، فإذا فيه أسوِرَة مكسورة ، ودراهم متفرقة ، مقدار أربعة آلاف درهم ، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به .

وكان يطعم الطعام ، ويتسع على كل من احتاج إليه ، وكان أفاد مالاً من الكتابة لداود بن عمر ، فكان يُجري على جماعة من وجوه البصرة والكوفة ، مابين الخمسمائة إلى الألفين في كل شهر .

---

(1) عيون الأخبار ٣٣٩:٢

قال الجهشياري : وكانت بين ابن المقفع وبين عُمارة بن حمزة [1] مودة، فأنكر أبو جعفر على عمارة في وقت من الأوقات شيئاً ونقله إلى الكوفة وكان ابن المقفع إذ ذاك بها ، فكان يأتيه فيزوره ، فبينا هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يُعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره ، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم ، وأنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : ما أعجبَ هذا ! وكيلنا يشير علينا بالابتياع مع الإضاقة والإملاق ، ونحن إلى البيع أحوج ، وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه . وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف إلى منزله ، وأخذ سُفْتَجَة [2] إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم وكتب إليه على لسان عمارة : إني قد كتبت إليك ببيع ضيعتي ، ثم حضرني مال ، وقد أنفذت إليك سُفْتَجة ، فابتع الضيعة المجاورة لك ، ولا تبع ضيعتي ، وأقم بمكانك وأنفذ الكتاب بالابتياع إليّ .

ووجّه الكتاب إليه مع رسولٍ قاصدٍ . فورد على الوكيل وقد

(١) هو من ولد عِكرِمة مولى ابن عباس ، وكان كاتباً مجوّداً وكان من الدهاة الأجواد ، وكانت له منزلة رفيعة عند المنصور والمهدي ، ولي البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين . توفي نحو سنة ١٨٠

(٢) السُفْتَجَة هي أن يعطي مالاً لآخر ، ويكون للآخذ مالٌ في بلد المعطي فيوفيه إياه ، فيستفيد أمن الطريق . وقيل هي: كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالاً قراضاً يأمن به خطر الطريق .

باع الضيعة ، ففسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة وكتب إلى عمارة يذكر الأمر وأنه قد صارت لك ضيعة نفيسة . فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب ولم يعرف السبب ، وسأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل ، فقيل له : ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله . فلما صار إليه بعد أيام وتحدثا قال عمارة : بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل ، وكنا إليها هاهنا أحوج ، قال : فإن عندنا فضلاً ، وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى .

والظاهر أنه كان غنياً موسراً .

قال الجاحظ في البيان والتبيين ٢ : ١٢٨ وأما عبد الله بن المقفع فإن صاحب الاستخراج لما ألحّ عليه في العذاب قال لصاحب الاستخراج : أعندك مال ؟ وأنا أربحك ربحاً ترضاه ، وقد عرفت وفائي وسخائي وكتماني ، فعيني[1] مقدار هذا النجم ، فأجابه إلى ذلك ، فلما صار عليه مالٌ ترفق به مخافة أن يموت تحت العذاب فيتوى ماله .

ولم يبين الجاحظ مقدار ما تعين من المال ، ولكن ابن قتيبة بين ذلك في عيون الأخبار حيث قال :

كان ابن المقفع محبوساً في خراج كان عليه ، وكان يعذب ، فلما طال ذلك وخشي على نفسه تعين من صاحب العذاب مائة ألف درهم ، فكان بعد ذلك يرفق به إبقاءً على ماله .

اجادته في الرأي

وقال إسماعيل بن مسلم : استشرت ابن المقفع في أمر أهمني ، فأجاد في الرأي[2]

---

(١) العين والعينة الربا ، وعيّن وتعيّن أخذ بها أو أعطى (٢) لسان الميزان .

تعففه

وكان على شدة اختلاطه بأهل المجانة والخلاعة ، ومشاركته إياهم في مجالسهم ومجتمعاتهم ، لم يشتهر بما اشتهروا به من الفسوق والفجور .

وفاؤه لأصدقائه

ويقال : إن عبد الحميد بن يحيى الكاتب لما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية اختفى عند ابن المقفع ، وكان صديقاً له ، فدُلَّ عليه وفاجأهما الطلب ، وقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا بنا ، فإن لكلٍّ منا علاماتٍ ، فوكِّلوا بنا بعضكم ، وليمض بعضٌ آخر إلى من وجّهكم ويذكر له تلك العلامات ، ففعلوا وأُخذ عبد الحميد وترك ابن المقفع .

وهذه الحادثة — إن صدقت — أعلى مثلٍ في الوفاء وإيثار الصديق على النفس وفدائه بها . ولم يسبق لها نظير ، إلا ما كان من كعب ابن مامة حين آثر رفيقه بالماء حتى مات ظمأً .

وقد يبعدها من الصحة أن الداخلين على ابن المقفع وعبد الحميد من أعدائه الظافرين بسلطانه وأعوانه ، وهم لا يأتمرون بأمره وينتظرون عاقبة الجدال بينه وبين رفيقه ، ثم يذهب بعضهم للتثبت من علامات كلٍّ منهما .

وأن الغالب في مثل هذا الحادث أن لا يذهب قوم لأخذ رجل ليقتل أو يعذب وليس فيهم من يعرفه .

ولو قيل : إن الداخلين لم يعرفوا عبد الحميد ، فأخذوه مع رفيقه للتثبت لكان أقرب إلى الصواب

ويبعدها أيضاً اتفاق كثير من المؤرخين على أن عبد الحميد قتل في مصر ، أو في بوصير من بلاد مصر مع مروان .

ذكاء ابن المقفع وبلاغته

كان عبد الله ذكياً فطناً ، مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة ، واختراع المعاني وابتداع السير كما قال الجاحظ — وقد عده من المعلمين ، والبلغاء المتأدبين .

وقال محمد بن سلام الجُمَحي : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

وقال ابن النديم [1] : بلغاء الناس عشرة . وعدّ في أولهم ابن المقفع ، وقال : وكان نهايةً في الفصاحة والبلاغة ، كاتباً شاعراً فصيحاً . وكان أحد النَّقَلَة من اللسان الفارسي إلى العربي ، مضطلعاً باللغتين فصيحاً بهما .

---

(١) الفهرست ص ١٨٢

مصادر ثقافته

كتب كثيرٌ من العلماء والأدباء في ابن المقفع ، وأطالوا في مدحه بالذكاء ، ووصفه بالبلاغة ، وقصروا في نواحٍ كثيرة يحتاج إليها من يحاول دراسة أدبه .

منها المصادر التي استمدّ منها ثقافته ، تلك الثقافة العالية ، فلم ينته إلينا منها إلا النزر اليسير ، وهو مبعثرٌ في بطون الكتب ، قليل لا يروي غلة الباحث ، ويمكن أن يلخص ، بأن ابن المقفع ولد وعاش في زمن كان فيه للأدب سوقٌ رائجةٌ في بلاط الخلفاء والأمراء ، والقادة والسادة ، ومن يحتذي على مثالهم .

وأنه نشأ في ولاء آل الأهتم ، وهم قومٌ مشهورون بالفصاحة واللَّسَن والشعر والخطابة .

وأن نشأته كانت في البصرة ، وهي يومئذ مدينة العلم والأدب ، وينبوع العبقرية ، وقبة الإسلام ، وأحد جناحي الدنيا ، وكان المِرْبَد على مقربة منها ، وهو مجمع العلماء والفصحاء ، والأبيناء والبلغاء ، وخلف عكاظ . وكان يَعجّ برُواة اللغة والأدب ، ويجبي إليه خيرة الناس ، وثمرات القرائح .

وأن أباه داذويه علّمه شيئاً من الفارسية ، ثم أولع بالعربية ، فأخذ عن جماعة من العلماء وفصحاء الأعراب . منهم رجلٌ يقال له أبو الجاموس ثور بن يزيد ، كان من فصحاء الأعراب ، وكان يفدُ البصرة على آل

سليمان بن علي ، قال في الفهرست ص٦٧ : وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة ولا مصنَّف له ·

ورووا عنه أنه قال :

شربت الخُطَب رِيًا ، ولم أضبط لها رويًا ، ففاضت ، ثم فاضت ، فلاهي نظامًا ، وليس غيرها كلامًا · وقالوا : إنه يريد بهذه الكلمة الغامضة خطب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

وسئل مرة : من أدّبك؟ فقال: نفسي ، كنت إذا رأيت حسنًا أتيته ، وإذا رأيت قبيحًا أبيته ·

* * *

هذا ما عثرنا عليه في كلام العلماء والأدباء الذين كتبوا في ابن المقفع ، وهو كما ترى لا يمثل ثقافته تمثيلاً حقيقيًا ، ولا يدل على كنهها ·

وقد يظهر للمتأمل في آثار ابن المقفع أنه كان يحفظ كثيرًا من كلام العرب غير خطب عليّ من أمثالٍ وحكمٍ وأشعار ، وأنه كان يقتبس في كلامه كثيرًا من آيات القرآن والأحاديث النبوية ·

وفيه كثيرٌ من المصطلحات الشرعية ، مما يتعلق بالأعمال والعقائد كما سيتضح ذلك ·

وقد ذكروا أنه ترجم عن الفارسية كتبًا في السير ، والتاريخ ، والأدب ، وكتبًا في المنطق ، منها المقولات لأرسطو ، وتحليل القياس ، والمدخل إلى كتب المنطق ·

ولا ينسى لإنسان أن يترجم شيئًا من كتب العلم كلمةً بكلمة ،

وحرفًا بحرف ، بل لابد أن يكون ملماً بذلك العلم ، عارفًا بمواضعات أهله ومصطلحاتهم ، ليتأتى له ضبط الأقسام والحدود ، وإيراد القواعد الكلية ، وبيان ماخرج عنها ، ونحو ذلك .

ولو أراد إنسان أن يترجم كتاباً في المنطق مثلاً من اللغة العربية إلى لغة أعجمية ، لا يمكنه أن يؤدي المعاني التي يريدها أهل هذا العلم من مثل كلمة الكليّ والجزئيّ ، والذاتيّ والعَرَضيّ ، والحد والرسم ، والقضية ، والموضوع والمحمول ، وما شاكل ذلك — ما لم يكن عارفًا بما يريدونه منها ، وهذا يدلّ على أن ابن المقفع كان ملماً بالمنطق ، عارفًا باصطلاح العلماء فيه ، وفي كتبه أثرٌ ظاهرٌ من الترتيب المنطقي في الأفكار والتقسيم والتعليل وغيره .

فثقافة ابن المقفع مستمدَّة من الثقافة اليونانية والفارسية والهندية والعربية ، ولقد صهر هذه العناصر وأذابها كلها في الثقافة العربية ، حتى جاءت ثقافته كلها عربيةً بألفاظها وأسلوبها ، ولا تكاد تظهر عليها مَسحةٌ أعجمية .



حكم ابن المقفع وآراؤه

للحكم في كلام ابن المقفع حظٌ وافر ، ولاسيما في رسائله المطولة ، كالأدبين الكبير والصغير وكليلة ودمنة .

وقد بنى صرح حكمته على أسس ومصادر أكثرها عربي إسلامي ، وبعضها أعجمي ، كالحكمة المتعلقة بالتدبير في شؤون الفرد والجماعة ، وتعظيم الجمال ، والمغالاة في تعظيم السلطان ، ورياضة النفس على الطاعة في المكروه عنده ، وتقدير الأمور على أهواء السلطان ، وما شاكل ذلك .

مصادر حكمه

ابن المقفع درس الحياة درساً عميقاً ، وتأمل في أحوال الناس وأعمالهم ، ونقب عن العلل والأسباب ، وأمعن في درس الحياة السياسية والاجتماعية ، فلم يرقه كثيرٌ منها .

واطلع على حكمة الهند ، والفرس ، والعرب ، وغيرهم .

وتوفر على درس الأدب العربي ، وقايس بين العظات الغابرة ، والعبر الحاضرة ، فكان له من مجموع ذلك مَعينٌ استمد منه حكمته ، وغذى به ثقافته ، وأكثر الأسس التي أقام عليها حكمته عربي إسلامي كما قلنا ، وفيه صُبابة من غيرها .

وليس له نظريات علمية يدَعمها بالأدلة والبراهين ، شأنَ الفلاسفة

والحكماء ، وإنما هي كلماتٌ بليغة ينطق بمثلها الحكماء عند التصدي للقول في مكارم الأخلاق ومثالبها ، والنصح في معاشرة السلطان ، ومصاحبة الإخوان ، والسير في مناكب الحياة المحفوفة بالمكايد والحيل .

فهو يذهب إلى تعظيم الدين وإجلال شأنه ، ويعده نعمةً من الله على خلقه ، ويدعو إلى حب الخير وعمله ابتغاء الثواب في الآخرة . ولا يرى فضلاً لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

ويعتقد أن السلطان عمادٌ يقوم عليه صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم ، فيعظم شأنه ، ويرى وجوب طاعته ، وأن له حقاً على الناس عظيماً ، ولا يرى أن يكون الإنسان صاحباً للسلطان إلا بعد رياضة لنفسه على الطاعة في المكروه عنده ، والموافقة فيما خالفه ، وتقدير الأمور على أهواء السلطان .

ويرى أن الجبن مَقتَلَة ، والحرص مَحرَمة . وأن الحسد بليةٌ على صاحبه ، وأن الحرص والحسد بكرا الذنوب وأصل المهالك .

ولا يسوّغ الكذبة ولو في الهزل ، لأنها تسرع في إبطال الحق ، ويعتقد أن حب المدح والتزكية ثلمةٌ يقتحم الناس منها على المرء فيضحكون منه .

رأيه في المرأة

كان ابن المقفع على ما يظهر من كلامه قليل الثقة بالمرأة كثيرَ الظِنّة بها . فإنه لا يراها أهلاً للرأي ولا للسر ، ويرى ائتمانها ضرباً من

الحمق ؛ والغرامَ بها مفسدة يؤتى منها الرجل والسلطان ، ويراه أضرّ شيءٍ بالعقل والدين ، وأنها لا يُقدر على كيدها ، إلى غير ذلك مما يتمثل في نحو قوله : (١)

ثلاثة لايجترئ عليهن إلاّ أهوج ، ولا يسلم منهن إلاّ قليلٌ : وهي صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة . فقد قرن ائتمانها بشرب السم .

وقوله : شدة الحجاب ، خيرٌ لها من الارتياب .

ومَن الذي حادث النساء فلم يُصَب؟

وقوله : (٢) وقلما حرص الرجل على النساء ولم يفتضح .

وقوله : (٣) ولايقدر أحدٌ أن يجرب مكر النساء ، ولايقدر على كيدهن وكثرة حيلهن .

وقوله : (١) إنما يؤتى السلطان ويفسد أمره من قِبَل ستة أشياء ، وعدّ منها الهوى ، وهو الإغرام بالنساء .

وذكر في هذا الباب قصة ، خلاصتها أن ناسكاً استضاف امرأة وكانت لها جارية تؤاجرها ، والجارية علقت رجلاً تريد أن تتزوج به بغير رضى مولاتها ، فأعدت لها مولاتها سماً في قَصَبة ، وأرادت أن تنفخه في أنف الرجل ، فبدرت منه عطسةٌ فعكست السم إلى حلقها فماتت ، فذهب الناسك بعد ذلك فاستضاف إسكافاً ، فأمر امرأته أن تكرم

---

(١) باب الأسد والثور . (٢) باب الملك وفنزة . (٣) باب القرد والغيلم .

مثواه ، وكان لها ابنة تريد أن تزوجها لرجل لا يرضى به زوجها ، وكان ذلك الرجل يختلف إلى البيت في غيبة زوجها ، والوسيط بينهما امرأة حجام .. والقصة طويلة . جدع فيها هذا الزوج أنفَ امرأة الحجام ، وهذه ادعت على زوجها أنه هو الذي جدع أنفها ، وخلاصة الحادثة تصور المرأة مجرمةً جانية محتالة ، لا تعتصم بحبل عفاف ، ولا تستطيع أن تغلب هواها .

وقوله [1] : اعلم أن مِن أوقع الأمور في الدين ، وأنهكها للجسد ، وأتلفها للمال ، وأضرِّها بالعقل ، وأشرها في ذهاب الجلالة والوقار ، الغرامَ بالنساء ...

وقوله [2] : إن العاقل يعُدّ الأزواج ألفاء ، والبنينَ ذِكراً ، والبنات خُصَماء .

هذه جملة من كلامه تمثل اعتقاده ورأيه في المرأة ، ولعل هذا الاعتقاد فيها قبل أن تتزوج ، فإن رأيه يتغير فيها بعد الزواج ، لأنه يرى أن الزوجة الصالحة لا يَعْدِلها شيء ، لأنها عونٌ على أمر الدنيا والآخرة [2] وخير النساء الموافقة لبعلها ، [2] وشرُّ الأزواج التي لا توافي بعلها ، وأربعة أشياء أصفار ، ثالثها المرأة التي ليس لها بَعْل ، وثلاثة يلْقَوْن الجواب (أي يلْهَمونه) ثانيها المرأة المُهْدَاة إلى من تودّ من ذوي الحسب . [3]

---

(١) الأدب الكبير .   (٢) باب الملك والطائر فنزة

(٣) باب ايلاذ .

وليست المرأة أهلاً لأن يحزن عليها إلاّ إذا كان فيها خمسة أشياء : إذا كانت عفيفة ، كريمةَ الحسب والنسب ، عاقلة ، جميلة ، موافقةً لزوجها محبةً له ·

وهذه الجملة تصوّر اعتقاده في المرأة بعد زواجها ، وما اشترطه للحزن عليها ·

ويمكن أن يلخص رأيه فيما قبل الزواج وبعده ، بأنه لا يخلو من قسوة وجور في الحكم عليها ، فليست كل امرأةٍ شيمتها ما ذكره ·

على أنه في موطن آخر يقول : وإن من الحمق التماس مودة النساء بالغلظة · فهو صريح في أن مودتها قد تلتمس ويجب أن تلتمس باللطف واللين ، ومن كانت سجيتها على ما وصف من قبل ، يجب أن لا تلتمس مودتها ·

وهذا يدل على أن ابن المقفع ليس له نظرة خاصة ولا رأي ثابت في المرأة ، وإنما اتفقت له هذه الجمل المتناقضة ، أو نقلها وأفرغها في قالبٍ من الحكمة بليغ ، من غير أن ينظر إلى تناقضها أو إلى مطابقتها للحقيقة وعدمه ·

رأيه في العقل والعاقل

ابن المقفع يعظم السلطان كثيراً ، ويعظم الصديق كثيراً ، ولكنه يعظم العقل أكثر من كل ما عظمه ·

فالعقل عنده أفضل من كل شي[1] · وأفضل ما رزق الله تعالى

(١) باب ابن الملك وأصحابه ·

عباده ، ومنّ به عليهم العقل الذي هو الدعامة لجميع الأشياء ، والذي لا يقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته ، ولا إحراز نفع ولا ضرر ، إلا بفيضه من الخالق .

وكذلك طالب الآخرة .. لا يقدر على إتمام عمله إلا بالعقل الذي هو السبب الموصل إلى كل خير ، والمفتاح لكل سعادة ، والمُبلغ إلى دار الخلود ، فليس لأحدٍ عنه غنى ، ولا بغيره اكتفاء .

والعقل غريزي مطبوع ، ويتزايد بالتجارِب والأدب ، وغريزته مكنونةٌ في الإنسان ، كامنةٌ فيه كمون النار في الحجر ، لا تظهر ولا يرى ضوؤها حتى يظهرها قادح من غيرها .. وكذلك العقل كامنٌ في الإنسان ، لا يظهر حتى يظهره الأدب وتعضده التجارب ، فإذا استحكم كان أولى بالتجارب ، لأنه هو المقوي لكل فضيلة ، والمعين على دفع كل رذيلة ، فلا شيءٌ أفضل من العقل إذا منّ الله تعالى على عبده به ، وأعانه على نفسه بالمواظبة على طرق من الأدب والعلم . ومن رُزق العقل وأعين على صدق قريحته حرص على طلب سعد جدّه ، وأدرك في الدنيا أمله ، وحاز في الآخرة ثواب الصالحين ، فالعقل هو المقوي للملك على ملكه ، فإن السُّوقة والعوامّ لا يصلحون إلا بإفاضة ينبوع العدل الفائض عن العقل ، لأنه سياجُ الدولة [1]

---

(١) باب بعثة برزويه .

والعقل مال من لا مال له ، والعقل مالٌ كثير ، فالعـاقل لا يحزن لقلته ، ولـكن ماله عقله ، وما قدم من صالح عمله .

والعقل يجعل كل مـكان وطناً لصاحبه : فالعاقل لا غربة له ، كالأسد الذي لا ينقلب إلا معه قوته [١]

والعقل شبيهٌ بالبحر ، لا يُدْرَك غوره ، فالعاقل لايَفْرَق عند سَداد رأيه ، ولا يعزب عنه ذهنه على حال [٢]

والعقل ملكةٌ تنير لصاحبها السبيل ، وبها يميز الخبيث من الطيب ، ومن حُرمها خبط في مجاهل الحياة القاتمة خبط عشواء فاثنان لاينظران: الأعمى ، والذي لا عقل له ، وكما أن الأعمى لاينظر السماء ونجومها ، ولا ينظر البعد والقرب ، كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ، ولا المحسن من المسيء [٣]

والعقل أمارات يستدل منها عليه .

وإن عقل الرجل ليبين في خصال ثمان : الأولى منها الرفق ، والثانية أن يعرف نفسه فيحفظها ، والثالثة طاعة الملوك والتحري لما يرضيهم ، والرابعة معرفة الرجل موضع سره وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه ، والخامسة أن يـكون على أبواب الملوك أديباً ملِقَ اللسان ، والسادسة أن يـكون لسره ولسر غيره حافظاً ، والسابعة أن يـكون على لسانه قادراً

---

(١) باب الحمامة المطوقة .　　(٢) باب الجرذ والسنور .

(٣) باب ايلاذ وبلاذ .

فلا يتكلم إلا بما يأمن تَبِعته ، ولا يطلع على سره إلا الثقات ، والثامنة أن لا يتكلم في المحافل بما لا يُسأل عنه[1]

ومن رُزِق العقل لا يستوي بغيره ، ويُكلَّف من الأعمال ما لا يكلفه غيره ، ويؤاخذ بما لا يؤاخذ به غيره ، ولذلك رآه ابن المقفع جديراً بأن يكون متصفاً بأمور ، ومتجافياً عن أخرى : فلا ينبغي لذي العقل أن يحتقر أحداً من الناس حتى البهائم ، ولكنه خليق أن يبلوهم ويختبرهم ، ويكونَ ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم ، فقد يكون الخير عند من يظن به الشر ، والشر عند من يظن به الخير[2]

ولا ينبغي للعاقل أن يلج على إخوانه في المسألة ، فإن العجل إذا أكثر من مص ضَرْع أمه نطحته .

ولا ينبغي للعاقل أن يقنط وييأس من رحمة الله وفضله فيما لا يناله ، فربما ساق القدر له رزقاً هنيئاً وهو غافلٌ عنه ، لا يدري ولا يعلم وجهه .

وينبغي للعاقل أن يكون مُتهماً لهواه ، ولا يقبل من كل أحد حديثاً ، ولا يتمادى في الخطإ إذا التبس عليه أمره ، ولا يلج في شيء منه ولا يقدم عليه حتى يتبين له الصواب فيه ، وتستوضح له الحقيقة .

ويجب عليه أن يصدقَ بالقضاء والقدر ، ويعلم أن ما كتب سوف يكون ، وأن من أتى صاحبه بما يكره لنفسه فقد ظلم ، ويأخذَ بالحزم في أموره ، ويحب للناس ما يحب لنفسه ، ويكرهَ لهم ما يكره لها ، فلا

---

(١) بعثة برزويه . (٢) باب السائح والصائغ .

يطلب أمراً فيه مضرة لغيره ، طلباً لصلاح نفسه بفساد غيره ، فإن كل غادر مأخوذ .[1]

والعاقل لايعجل في العذاب والعقوبة ، ولاسيما من يخاف الندامة[2] والعاقل أحرص على إماتة الحقد منه على تربيته ، ولكن لاينبغي له أن يظن أن الموتور[3] الحقود ناسٍ ما وُتر به ، أو مصروف عنه .. والعاقل لايترك إلفه ، ولايقطع إخوانه ، ولايُضيع الحِفَاظ[4] وإن هو خاف على نفسه .. ولايغتر بسكون الحقد إذا سكن ، فإنما مَثَل الحقد في القلب إذا لم يجد محركاً مثلُ الجمر المكنون مالم يجد حطباً ، والعاقل يعدُّ أبويه أصدقاء ، والإخوة رُفقاء ، والأزواج أُلفاء ، والبنين ذِكراً والبنات خُصماء ، والأقارب غُرَماء ، ويعدّ نفسه فريداً وحيداً .

والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة ، وإذا خاف ضر الصديق أظهر له العداوة .

والعاقل يصالح عدوه إذا اضطُرّ إليه ، ويصانعه ، ويظهر له وده ، ويريه من نفسه الاسترسال إليه ، إذا لم يجد من ذلك بدّاً ، ثم يعجل الانصراف عنه حين يجد إلى ذلك سبيلا .

---

(١) باب عرض الكتاب . (٢) باب ايلاذ

(٣) الوَتر : الذَّحل وهو الحقد والعداوة ، وكل من أدركته بمكروه فقد وترته والموتور الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

(٤) الحفاظ : الأنفة ، والمحافظة على العهد والذب عن المحارم والمنع لها عند الحروب

والعاقل يبقي لمن صالحه من أعدائه ، بما جعل له من نفسه ، ولا يثق به كل الثقة ، ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه ، وينبغي أن يبعد عنه ما استطاع .

ولا تمنع ذا العقل عداوةٌ كانت في نفسه لعدوه من مقاربته ، والاستنجاد به على دفع مرهوب ، أوجرّ مرغوب ، ومن عمل في ذلك بالحزم ظفر بحاجته [(١)]

وذو العقل لا يبطر من منزلة أصابها ، وإن تعاظم أمره وقدره ، ويكون عند ذلك كالجبل الذى لاتحركه الرياح الشديدة ، والسخيف [(٢)] كالعشب يحركه أدنى ريح .

والعاقل لا يرحم من يخافه ، وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ، ثم قرّبه وأدناه ، لما يعلم عنده من الغَناء والكفاءة ، فعلَ الرجل المتكاره على الدواء الشنيع ، وربما أحبّ الرجل وعزّ عليه فأقصاه وأهلكه ، مخافةَ ضرره ، كالذي تلدغه الحية في اصبعه فيقطعها ويتبرأ منها مخافة أن يسري سمها إلى بدنه . [(٣)]

والعاقل لا يَعدِل بالإخوان شيئًا ، فالإخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمؤاسون [(٤)] عندما ينوب من المكروه .

---

(١) باب الجرذ والسنور .　　(٢) السخيف : الناقص العقل .

(٣) باب الأسد والثور .

(٤) يقال : آسيته بنفسي أي سويته ، ويقال : واسيته وهي ضعيفة .

والعاقل إن كان واثقاً بقوته وفضله ، لاينبغي أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه ، اتكالاً على ماعنده من الرأي والقوة ، كما أنه وإن كان عنده التِرْياق ، لاينبغي له أن يشرب السم اتكالاً على ماعنده [1]

والعاقل : [2] لايثق بأحدٍ ما استطاع ، ولايقيم على خوفٍ يجد عنه مذهباً . وذو العقل [1] حقيق أن يكون سعيه في طلب مايبقى ويعود نفعه عليه غداً ، وأن يمقت بسعيه ماسوى ذلك من أمور الدنيا ، فإن منزلة المال عند العاقل بمنزلة المَدَر [3]

هذا مجمل مايراه في العقل والعاقل في كتاب كليلة ودمنة ، وسيأتي رأيه فيهما في كتابي الأدب الصغير والكبير .

رأيه في المال

ولابن المقفع نظرات في المال وجمعه وادّخاره ، وطرق اكتسابه وإنفاقه ، وفي الغنى والفقر ، ومنزلة كلٍ عند العقل والناس ، تتمثل في كلماته الآتية ، وإن كان في بعضها ما يناقض غيره .

منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدَر [1]

وأما جمعه ومواطن بذله فقد بينها بقوله :

إنما المال يطلبه صاحبه ويجمعه من كل وجه ، لبقاء حاله ، وصلاح

---

(١) باب البوم والغربان .

(٢) الملك وفنزة .

(٣) المدر : قِطَع الطين اليابس أو الطين العِلك الذي لارمل فيه .

معاشه ودنياه ، وشرف منزلته في أعين الناس ، واستغنائه عما في أيديهم ، وصرفه في وجهه من صلة الرحم ، والإنفاق على الولد ، والإفضال على الإخوان . فمن كان له مال ولا ينفقه في حقوقه كان كالذي يعدّ فقيراً وإن كان موسراً ، وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه لم يعدم الأمرين جميعاً من دنيا تبقى عليه ، وحمد يضاف إليه ، ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه التي حدّت لم يلبث أن يتلفه ويبقى على حسرة وندامة [1]

ليبذل ذوو المال مالهم في أربعة مواضع : في الصدقة ، وفي وقت الحاجة ، وعلى البنين والأزواج ، ولا سيما إذا كنّ صالحات [2]

ويعتقد ابن المقفع أن المال هو الذي يكسب أعواناً وإخواناً ، ويورث عقلاً وحظاً في الدنيا والآخرة ، وأن الفقر يحول بين ذلك كله وبين صاحبه ، بل يجعل الحسن من غيره قبيحاً منه ، ومن استقرى أحوال الناس وأمعن النظر في أثر الفقر والغنى في نفوسهم ، تبين له أن الغنى سبب كل سعادة وهناءة ، والفقر سبب كل شقوة ونكد .

ويقول [3]: ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال . ومن لا مال له إذا أراد أمراً قعد به العُدْم عما يريده ..

ومن لا مال له لا عقل له ، ولا دنيا ولا آخرة له ، لأن من نزل به الفقر لا يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ..

---

(١) عرض الكتاب . (٢) باب القرد والغيلم .

(٣) الحمامه المطوقة والأدب الصغير

و . و . و . يكون أنكد الناس حظاً في الدنيا والآخرة ، وإن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه وأهل وده ، ومقتوه ورفضوه وأهانوه ، واضطره ذلك إلى أن يلتمس من الرزق مايغرر فيه بنفسه ، ويفسد فيه آخرته ، فيخسر الدارين جميعاً .

والفقر رأس كل بلاء ، وجالبٌ إلى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة . وإذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً ، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعاً ، وليس من خَلَّةٍ هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذم ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج[1] وإن كان جواداً سمي مبذراً .

والفاقة بلاء .[2]

ومهما كان الفقر شديداً على النفوس ، وجالباً للشقاء والمحنة ، وحائلاً بين كل سعادة ، فإنه لايَعْدِل الغنى من طريقٍ غير مشروع ، بل :

الفقر خيرٌ من النعمة والسعةِ من أموال الناس .[3]

ويعتقد مرة أخرى أن المرء لاينبغي له أن يلتمس فوق الكفاف من الدنيا ، وأن الناس يكرمون المرء على غير مال ، فقد :

جرّبت فعلمت أنه لاينبغي للملتمس من الدنيا غير الكفاف[4]

---

(١) الأهوج : من فيه تسرع وحمق . (٢) الملك وفنزة

(٣) الحمامة المطوقة .

(٤) الكفاف من الرزق : القوت ، وهو ما كف عن الناس وأغنى . وقوته كفاف أي مقدار حاجته من غير زيادة ولانقص .

الذي يدفع به الأذى عن نفسه ، وهو يسيرٌ من المطعم والمشرب إذا أعين بصحة وسعة ، ولو أن رجلاً وُهبت له الدنيا بما فيها ، لم يكن ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذي يدفع به عن نفسه الحاجة ، وماسوى ذلك فليس له منه إلا ما لغيره من النظر إليه حسب ...

فلا تحزن لقلة المال ، فإن الرجل ذا المروءة قد يكرَم على غير مال كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابضاً [1] والغني الذي لامروءة له يهان وإن كان كثير المال ، كالكلب لا يُحفل به وإن طوّق وخلخل بالذهب [2]

ولا خير في المال إلا مع الجود [3]



(١) الربوض للدابة : كالبروك للإبل

(٢) الحمامة المطوقة .

(٣) الأسد والثور .

براعته في الترجمة وقدرته

علمنا أن ابن المقفع كان مضطلعاً باللغة العربية، قديراً على التصرف فيها في أي غرض أراده .

وكذلك كان في اللغة الفارسية، فكان يترجم منها إلى اللغة العربية . وقد توهم بعض الكتاب أن ابن المقفع كان عالماً باللغة اليونانية، وهذا خطأ بين : ولعل سببه أن هذا الزاعم رأى أن ابن المقفع ترجم كتباً لأرسطاطاليس في المنطق ولغيره، فتوهم أنه ترجمها عن اليونانية، والمعروف أنه نقل ذلك عن اللغة الفارسية .

قال في الفهرست : ١٧٢ وكان أحد النَّقَلَة من اللسان الفارسي إلى العربي مضطلعاً باللغتين، فصيحاً بهما، وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس . (سيأتي بيانها) .

وقال في عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ : ٣٠٨ في الكلام على كليلة ودمنة : ثم ترجمه في الإسلام عبدالله بن المقفع الخطيب من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ... وترجم من كتب أرسطوطاليس ...

وعبارته في الترجمة عبارةٌ سهلةٌ قريبة المأخذ .

قال في إخبار العلماء ١٤٨ فيه : أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، وهو فارسي النسب، ألفاظه حكيمة، ومقاصده من الخلل سليمة، ترجم كتب أرسطوطاليس

بعبارة سهلة ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكتاب كليلة ودمنة .

وكلمة الجمهور من العلماء والأدباء متفقة على قدرة ابن المقفع على الترجمة وبراعته فيها ، ما عدا الجاحظ ، فإن له رأياً في ابن المقفع وغيره من التراجمة جديراً بالقبول ، فإنه يقول :

إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدي الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على المجري ، وكيف يقدر على أدائها ، وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقها وصدقها ، إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه . فمتى كان ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة ... وابن المقفع مثل أرسطو ؟ .

ثم بين سبب ذلك بقوله : ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة ..

وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول عنها ، والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعتين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ؟ وإنما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليها .

ثم أفاض في الاستدلال على هـذا الرأي وتوضيحه ، ولاشك أن كلام الجاحظ حقٌ لامرية فيه ، لأن المترجم إذا لم يكن عالمًا بمايترجمه من كتب العلم، عارفًا بما تواضع عليه أهله ، واقفًا على دقائقه ودقائق كلٍ من اللغتين ، خبط خبط عشواء في الليلة الظلماء ، واستحال عليه أن يأمن غائلة التحريف والتصحيف ، وأن يدرك مافي الكتاب من إيماء وتلميح وأن يفقه مافيه من المرامي الدقيقة ، والقيود والشروط التي لايدركها إلا الراسخون في ذلك العلم ، ولاتكاد النفس تطمئن إلى الترجمة وتثق بصحتها مالم تتوفر فيها هذه الشروط .

ومما لاريب فيه أن هذا هو السبب أو من أعظم الأسباب التي حملت الخلفاء والعلماء في عهد الرشيد والمأمون على أن يعيدوا النظر فيما كان ترجم في عهد المنصور ويصححوه وينقحوه .



أسلوب ابن المقفع وطريقته

لا شك أن ابن المقفع كاتب حكيم في ألفاظه وتراكيبه ومعانيه وأغراضه، فقد كان يتوخى الألفاظ الرشيقة، والأسلوب السهل، وكثيراً ما كان يتوقف إذا كتب، فقيل له في ذلك فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لأتخيره. ويُعْنَى بالمعنى عناية شديدة، حتى إذا تم له تصوره تخير له من الألفاظ على قدره، لا وكس ولا شطط[1] وهو مع ذلك لا يتعمل، ولا يتكلف السجع، وقد يزاوج بين الكلمات ولا ينزع إلى المبالغة والغلو، وهو مع توخيه السهولة قد يتعمد الإيجاز والجزالة، ولكنه لم يبلغ في إيجازه ما بلغه العرب الخلص في جوامع كلمهم كقول النبي صلى الله عليه وسلم: الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ. الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ وقول العرب: القتل أنفى للقتل، قيمة كل امرئ ما يحسن، العَيْر أوقى لدمه[2] الشجاع موقّى[3].

---

(١) أي لا نقصان ولا زيادة.

(٢) العير: حمار الوحش، وأوقى أكثر وقاية، وليس شيء من الصيد يحذر حذر العير إذا طلب، وأصل هذا المثل لزرقاء اليمامة: زحف جيش من حِمْيَر على قومها، وكان كل فارس يحمل غصناً من شجرة يستتر به حتى لا تراه الزرقاء، فنظرت ذات يوم ذلك الجيش فقالت لقومها: لقد مشى الشجر، وجاءتكم حمير، فكذبوها، ثم رأت عيراً نفر من الجيش فقالت: العير أوقى لدمه، من راع في غنمه. فذهبت مثلاً، يضرب للموصوف بالحذر.

(٣) وذلك لأنه يقل من يرغب في مبارزته خوفاً على نفسه منه، وهو كقولهم: احرص على الموت توهب لك الحياة.

وقد يلخص أسلوب ابن المقفع بسهولة التأليف وفصاحته ، وجلاء المعنى ، والسلامة من التكلف والتصنع ، وجعل اللفظ وافياً بالمعنى ، وترتيب الأفكار واتساقها ، والجمع بين تفكير الحكيم وذوق الأديب ، وقد احتذى على مثال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في ذلك ، قال عبد العظيم العدواني المعروف بابن أبي الاصبع المتوفى سنة ٦٥٤ : كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه بَتَّةً [1] ، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، واتفق من غير قصدٍ ولا اكتساب ، وإن كانت كلماتهم متوازنة ، وألفاظهم متناسبة ، ومعانيهم ناصعة ، وعباراتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة . وتلك طريقة الإمام علي عليه السلام ، ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام ، كابن المقفع ، وسهل بن هرون ، والجاحظ ، وغير هؤلاء من العلماء والبلغاء .

وفي كلامه ما هو مسجوع كقوله [2] :

فالحكمة كنزٌ لا يفنى على الإنفاق ، وذخيرة لا يضرب لها بالإملاق ، وحلة لا تخلق جدتها ، ولذة لا تُصرم مدتها ، وقوله [3] :

فإن من لم يفكر في العواقب ، لم يأمن من المصائب ، وكان حقيقاً أن لا يسلم من المعاطب .. وفي مقدمة كليلة ودمنة سجع كثير ، إلا أن الغالب في كلامه عدم تعمد السجع ، وما ورد منه فيه فعلى سبيل الاتفاق .

---

(١) يقال : لا أفعله بَتَّةً ولا أفعله البتة لكل أمرٍ لا رجعة فيه ، وهو منصوبٌ على المصدر .

(٢) كليلة ودمنة (٣) باب اللبؤة والاسوار

وكثيراً ما يردّد الكلمة حيث يرى الأمر جديراً بتنبيه السامع ، كقوله في الأدب الكبير : احترس من سَوْرة [1] الغضب ، وسورة الحمية ، وسورة الحقد ، وسورة الجهل …

وقوله فيه : تحرّز من سكر السلطة ، وسكر العلم ، وسكر المنزلة ، وسكر الشباب .

وفي كلامه كثير من الازدواج يدل على أنه كان محباً له ، كقوله في فاتحة الأدب الكبير : وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساداً ، وأوفرَ مع أجسادهم أحلاماً ، وأشدّ قوةً ، وأحسنَ بقوتهم للأمور إتقاناً ، وأطولَ أعماراً ، وأفضلَ بأعمارهم للأشياء اختباراً .

والظاهر أنه كان لا يحب الاستشهاد بشيء من أبيات الشعر بألفاظها ، فليس في آثاره التي اطلعنا عليها شيء من ذلك ، إلا رسالة الصحابة فإنه استشهد فيها ببيتين :

وإلا كتابه الذي كتبه إلى يحيى بن زياد ، فقد استشهد فيه ببيت واحد .

وأما معاني الشعر فقد أخذ منها كثيراً كما سيأتي .

اقتباسه من القرآن

ولكنه اقتبس كثيراً من آيات القرآن الكريم وألفاظه ومعانيه ، كقوله [2] : وليس ينبغي للعاقل أن يقنط وييأس من رحمة الله …

---

(١) سورة الغضب ونوبه ، والحمية الأنفة والغيرة . (٢) باب الفحص عن أمر دمنه .

وقد يكون من يتولى ذلك لا تأخذه في الله لومة لائم ·· وإلا فلا ملجأ لي في ذلك إلا الله ، وهو الذي يعلم سرائر العباد وماتكن صدورهم ·· وقالوا : من اقترف خطيئة أو إثمًا ·· إن صالحي القضاة لا يقطعون بالظن ··· لعلمهم أن الظن لا يغني من الحق شيئًا ·· إن كثرة البحث عن الأمور تحق الحق وتبطل الباطل ·· يعرفون بسيماهم ·

وقوله [١] : فيعمل على هلاكه ويتربص به ريب المنون ·

وقوله [٢] : ليس تأخذني سِنَةٌ ولا نوم ·

وقوله في اليتيمة [٣] : ومَثل الرياح التي يرسلها الله بشراً بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ، ويجعلها لقاحاً للثمرات ···

ومن ذلك الليل الذي جعله الله سكنًا ولباسًا ·· والتي ليس فيها نصبٌ ولا لغوب ·

وقوله [٢] : هو الله الذي لا تبديل لكلماته ·

اقتباسه من الحديث

ووقع في كلامه كثيرٌ من الأحاديث النبوية ومعانيها، كقوله : [٤] فإنه قد قيل: كما تدين تُدان · وهذا مأخوذ من الحديث : البِرُّ لاَ يَبْلَى ، وَٱلذَّنْبُ لاَ يُنْسَى ، وَٱلدَّيَّانُ لاَ يَمُوتُ ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ ·

---

(١) باب الأسد وابن آوى (٢) باب إيلاذ (٣) عيون الأخبار

(٤) باب اللبؤة والأسوار

وقوله: المستشار مؤتمن ... مأخوذ من حديث: الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ فَإِذَا اسْتُشِيرَ فَلْيُشِرْ بِمَا هُوَ صَانِعٌ لِنَفْسِهِ.

وقوله في رسالة الصحابة: لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ قال في عيون الأخبار ٢ : ٣٤٣ هو من كلمة قالها الحسن عند عمر بن هبيرة، والصحيح أنه حديث شريف صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه.

وقوله[1]: لا عقل كالتدبير، ولا ورع ككف الأذى، ولا حسب كحسن الخلق .. وهذا حديث شريف رواه ابن ماجه ولفظه: لاَ عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلاَ وَرَعَ كَالْكَفِّ ..

وقوله[2]: لكل مقام مقال، ولكل موضع مجال، أوله من حديث ذكره المناوي في كنوز الحقائق وعزاه لابن عدي ولفظه: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ رِجَالٌ.

وقوله[3]: ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها.

وقوله[4]: ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك ...

وهما من الحديث الصحيح: لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، والحديث الصحيح أيضاً أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ. ومن قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها.

---

(١) باب الحمامة المطوقة والأدب الصغير (٢) باب الفحص عن أمر دمنة

(٣) باب عرض الكتاب (٤) باب اللبؤة والأسوار

تضمينه الأمثال

وفي كلامه كثير من أمثال العرب وحكمهم .

كقوله [١] : وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه ، وهو مأخوذ من المثل : من حفر مَغْوَاة [٢] وقع فيها، أو أوشك أن يقع فيها . ونحوه قولهم: من سلَّ سيف البغي قُتل به .

وقوله [٣] : ما ترك الأول للآخر شيئًا . من قول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم

وقول زهير :

ما أرانا نقول إلا مُعاراً ... أو مُعاداً من لفظنا مكرورا

وقوله [٤] : وشرُّ الملوك الذي يخافه البريء . وهو من قول أكثم بن صيفي في خطبته عند كسرى ، ولفظه فيها : شرُّ الملوك من خافه البريء .

وقوله المتقدم : فإن من لم يفكر في العواقب ... من قول ضمرة للنعمان : ليس للأُمور بصاحب ، من لم يفكر في العواقب ..

وقوله : فرب ملومٍ ولم يذنب ، مأخوذٌ من قول الأحنف بن قيس : رب ملومٍ لا ذنب له .

وقوله [٥] : إن ضاع المعروف عند الناس ، لا يضيع عند الله . وهو من قول الحُطَيْئَة :

---

(١) باب عرض الكتاب . (٢) المُغْوَاة : بئر تحفر وتغطى للضبع والذئب ويجعل فيها جَدْي، ويقال لكل مهلكة مغواة . (٣) باب الفحص عن أمر دمنة . (٤) باب الملك والطائر فنزة . (٥) باب السائح والصائغ .

لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

وقوله[1] : إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس مالا يدرك، وهو مأخوذ من المثل : رضى الناس غاية لا تدرك، ويروى أنه من كلام أكثم.

وقوله[2] : ليس أضيع من جميل يصنع مع غير شاكر، ولا أخسر من صانعه ... من قول زهير :

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

المصطلحات الاسلامية في كلامه

وفي كلامه كثير من المصطلحات الشرعية الإسلامية كقوله[3] : فلم تكن له حجة .. فأمر القاضي أن يقتص منه : وقوله : لتزداد علماً بوخامة عاقبة الشهادة بالكذب في الدنيا والآخرة .. قد علمت أن شهادة الواحد لا توجب حكماً .. المسكن لي وتحت يدي وأنت مدعٍ به.

وقوله[4] : هل يريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية ؟ .. لم نكره الصلح على خراج نؤديه إليه في كل سنة ندفع به عن أنفسنا .. يسفك الدماء، ويأمل أن روحه من الشهداء.

وأمثال ما تقدم كثير في كلامه، ولا سيما رسالة الصحابة، فإنها طافحة بالآيات، وكلام الأعلام، وغير ذلك.

وبعد كل ما تقدم فإن أسلوب ابن المقفع أسلوب رشيق، صافي

---

(١) باب السائح والصائغ. (٢) الأدب الكبير.

(٣) باب الأسد والثور. (٤) باب البوم والغربان.

الديباجة ، مُطمِعٌ ممتنع ، وقد وصف البلاغة بقوله : هي التي إذا رآها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها : وهذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على أسلوبه .

هل هو صاحب طريقة جديدة في الانشاء

قسم بعض الأدباء طرق الإنشاء إلى أربعة ، وجعل أولها طريقة ابن المقفع ، ولكن يظهر للمتأمل الممعن أنه كان يتبع عبد الحميد ابن يحيى في أسلوبه ، ويحتذي على مثاله . ومن الغبْن الفاحش أن لا يكون عبد الحميد هو صاحب هذه الطريقة ، وهو الذي افتنّ في البدء والختام ، وأطال المقدمات ، وميز الفصول . وكان ابن المقفع يطبع على غِراره ، ويترسم خطاه حذْو القُذّة بالقذة [1] ، وإنما زاد ابن المقفع عليه ما ترجمه أو وضعه على ألسن الحيوان ، وهذا ليس بطريقة مستقلة .

ومع هذا فإن ابن المقفع ترك للأدب العربي تُراثًا قيمًا ، وأعلاقًا كريمةً فتح بها أبوابًا جديدةً فيه ، ومهد السبيل لمن أتى من بعده وأشهر آثاره التي خلفها ووصلت إلينا كتاب كليلة ودمنة ، والأدب الصغير ، والأدب الكبير ، ورسالة الصحابة ، وبعض رسائل إخوانية ، وقطعاً مبعثرة في بطون الكتب .

---

(١) مثل يضرب للشيئين يستويان ولا يتفاوتان ، والقذة ريش السهم تقدر كل واحدة منهن على قدر صاحبتها وتقطع ، فإذا نصبتَ فالتقدير :حذيا حذوَ القذة وإذا رفعت فالتقدير هما حذو القذة .

كليلة ودمنة

أصله وسبب وضعه

جاء في مقدمة كتاب كليلة ودمنة التي قدمها بهنود بن سحوان المعروف بعلي بن الشاه الفارسي ، أن السبب الذي من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة ، هو أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لما فرغ من أمر ملوك المغرب سار يريد ملوك المشرق ، فلم يزل يحارب من نازعه من ملوك الفرس حتى ظهر عليهم ، فتفرقوا طرائق[1] ، وتمزقوا حزائق[2] .. فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين ، فبدأ في طريقه بملك الهند ليدعوه إلى طاعته ، وكان على الهند ملك يقال له فور ، فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربته ، فتخوف ذو القرنين ، وكان ذا حيل ومكايد ، مع حسن تدبير وتجربة ، فأعدّ خيلاً من نحاس محشوةً بالنفط وعليها تماثيل من الرجال ، ثم أرسل إلى فور يدعوه إلى طاعته ، فأجاب جواب مُصرّ على مخالفته ، فسار إليه بأهبته ، فنقطع فور وجمعه ، وتبعهم أصحاب الإسكندر وأثخنوا[3] فيهم الجراح ، واستولى على بلادهم ، وملك عليهم رجلاً من ثقاته .. ثم انصرف عن الهند ، فلما بعد تغيرت الهنود ، فملكوا عليهم

---

(١) جمع طريقة وهي الفرقة (٢) جمع حَزيقة وهي الجماعة من الناس .

(٣) أثخنوا : أكثروا ، والإثخان في كل شيء : قوته وشدته والمبالغة فيه والإكثار منه .

ملكاً يقال له دبشليم، وخلعوا الرجل الذي خلفه عليهم الإسكندر.

فلما استوسق[1] له الأمر طغى وبغى، وجعل يغزو من حوله من الملوك، فهابته الرعية، فعبَث بها وأساء السيرة فيها، وكان لا يرتقي حاله إلا ازداد عتوًّا[2]

وكان في زمانه فيلسوف من البراهمة .. يقال له بيدبا، فجمع تلامذته وقال: إني أطلت الفكرة في دبشليم وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر، ونحن ما نَروُض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك إلا لنردّهم إلى فعل الخير ولزوم العدل .. وقد جمعتكم لهذا الأمر فليُشر كل واحد منكم بما يسنح له من الرأي، قالوا: أيها الفيلسوف أنت المقدّم فينا، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك؟ وهذا الملك لم تؤدبه التجارب، ولسنا نأمن عليك من ثورته .. فقال: لقد قلتم فأحسنتم، وقد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم ..

ثم اختار يوماً للدخول على الملك، فدخل ووقف بين يديه وسكت، فقال له دبشليم: نظرت إليك يا بيدبا ساكتًا لا تعرِض حاجتك، فأنا قد فسحت لك في الكلام. تكلم مهما شئت فإنني مُصغ إليك، فقال: أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك الذين

---

(١) استوسق: انتظم أو اجتمع.

(٢) العتو: الاستكبار، وقيل شدة الدخول في الفساد والتمرد الذي لا يقبل صاحبه موعظة.

أسسوا الملك ، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم ، ولم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك ، بل طغيت وبغيت ، وعتوت وعلوت على الرعية ، وأسأت السيرة ، وكان الأولى لك أن تسلك سبيل أسلافك ...

فقال له الملك : لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحداً من أهل مملكتي يستقبلني به .. ثم أمر به أن يقتل ويصلب ، فلما مضوا به فكر فيما أمر به فأحجم عنه ، ثم أمر بحبسه وتقييده . فمكث بيدبا في محبسه أياماً .

ثم سهد الملك ليلة .. فذكر بيدبا ، فأنفذ من يأتيه به ، فقال له : أعد علي كلامك كله ولا تدع منه حرفاً إلا جئت به ، ففعل : فقال له : قد وليتك من مجلسي هذا إلى جميع أقاصي مملكتي ، ثم إن الملك صرف همته إلى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده ، فوقع في نفسه أن يكون له كتاب ينسب إليه وتذكر فيه أيامه ، فقال لبيدبا : أحببت أن تضع لي كتاباً بليغاً تستفرغ فيه عقلك ، يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها على طاعة الملك ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية ، قال : قد أجبت الملك ، قال : وكم الأجل ؟ قال : سنة ، قال : قد أجلتك ، وأمر له بجائزة سنية .

ثم وضعه مع تلميذ له على لسان بهيمتين .. ورتب فيه خمسة عشر باباً كل باب منها قائم بنفسه ، وفي كل باب مسألة والجواب عنها ،

وضمن تلك الأبواب كتاباً واحداً، وسماه كتاب كليلة ودمنة، وجعل كلامه على ألسنة البهائم والسباع والطير، ليكون ظاهره لهواً للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة، وضمنه ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته، وما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه، وجعل أول الكتاب وصف الصديق، وكيف تقطع المودة بحيلة ذي النميمة.

فلما تم الحول أنفذ إليه الملك أن قد جاء الوعد، فماذا صنعت؟ فقال: إني على ما وعدت الملك، فليأمرني بحمله بعد أن يجمع أهل المملكة؛ لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم. فأمر الملك بذلك، ولما جلس لقراءة الكتاب سأله الملك عن معنى كل باب، وإلى أي شيء قصد فيه، فأخبره، فقال له: اطلب ما شئت وتحكم، فقال: يأمر الملك أن يدون كتابي هذا كما دون آباؤه وأجداده كتبهم، ويأمر بالمحافظة عليه، فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند فيتناوله أهل فارس.

نقله الى الفارسية

وجاء في باب بعثة كسرى أنوشروان برزويه إلى الهند في تحصيل هذا الكتاب، أن كسرى أنوشروان بن قباذ كان أكبر ملوك الفرس، وأحبهم للعلوم والأدب، فبينما هو ذات يوم في عنفوان دولته، إذ أخبره بعض جلسائه أن عند بعض ملوك الهند في خزائنه كتاباً من تأليف الحكماء، وقد فصلت له غرائب من عجائبه الموضوعة

على أفواه البهائم والطير والوحش والهوامّ وخشاش[1] الأرض ، مما يحتاج إليه فضلاء الملوك لسياسة رعيتها ، فدعته الحاجة إلى اقتناء هذا الكتاب .

وسأل وزراءه أن يجتهدوا في تطلب رجلٍ كامل عالم أديب، عارف بلسان الفارسية ، خبير باللغة الهندية ، يكتبهما جميعاً . فبحثوا عمن هذه صفته فوجدوه ، وهو برزويه بن أزهر الفيلسوف ، وكان من فضلاء أطباء فارس ، فأُحضر بين يدي كسرى ، فقال له : بلغني عن كتاب بالهند مخزون في خزائنهم ، وقص عليه قصته ، وقال له : تجهز فإني مُرحلك إلى أرض الهند ، فتلطف بعقلك لاستخراج هذا الكتاب تاماً كاملاً مكتوباً بالفارسية ، فتستفيده أنت وتفيدنا إياه ، وماقدرت عليه من كتب الهند مما ليس في خزائننا منه شيء فاحمله معك ، وقد أمرنا أن يُطلق لك من أموالنا ما تختار .

فسار برزويه حتى قدم الهند . واتخذ لطول مقامه أصدقاء من أهل الهند من الأشراف والعلماء ، والفلاسفة والسُّوقة ، واصطفى واحداً من أصدقائه لسره ، ولما وثق به قال له : إني لأمرٍ قدمت بلادكم ، وهو غير الذي يظهر مني ، فقال له صديقه : ماخفي عليّ ذلك ، وأعلمه بحاجته التي قدم بسببها ، وكان الهندي خازن الملك وبيده مفاتيح خزائنه ، فأجابه إلى ذلك الكتاب وإلى غيره ، فأكبّ على تفسيره ونقله إلى اللسان الفارسي ، وسار

---

(١) الخشاش بفتح الخاء وكسرها : جمع خشاشة وهي الحشرة والهامّة .

متوجها نحو كسرى ، فأكرمه وقال له : اذكر حاجتك فعليّ ما يسرّك ، فقال برزويه : حاجتي أن يخرج أمر الملك .. إلى وزيره بزرجمهر بن البختكان أن ينظم أمري في نسخته ، ويبوّب الكتاب ويجعل في تلك النسخة باباً يذكر فيه أمري ويصف حالي ، فقال كسرى : حباً وكرامة يا برزويه ، وأقبل على وزيره بزرجمهر وقال له : إني أحب أن تكتب باباً مضارعاً لأبواب الكتاب تذكر فيه فضل برزويه ونسبه وحسبه ، وصناعته وأدبه ، وبعثته إلى الهند ، وما أفدنا من الحكم على يديه .

ثم خرج بزرجمهر من عند الملك فوصف برزويه من أول يوم دفعه فيه أبواه إلى المؤدب ، ومضيه إلى بلاد الهند في طلب الكتاب ، فجمع الملك أشراف قومه وأهل مملكته ، وأمر بزرجمهر بقراءة الكتاب وبرزويه قائم إلى جانبه ، فشكر له ذلك .

ووضع عبد الله بن المقفع باباً بين فيه غرض الكتاب قال فيه : هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا .

وأما الكتاب فجمع حكمةً ولهواً ، فاختاره الحكماء لحكمته ، والأغرار للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشطٌ في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ماهو .

فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له ، والرموز التي رمزت فيه ، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه .

وقد ينبغي للناظر فيه أن لا تكون غايته التصفح لتزاويقه ، بل يشرف على ما تضمنه من الأمثال حتى يأتي عليه إلى آخره ، ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيها رويته . . ويلتمس جواهر معانيه ، ولا يظن أن نتيجته إنما هي الإخبار عن حيلة بهيمتين ، أو محاورة سبع لثور ، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود . . وأن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض :

أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ، من مسارعة أهل الهزل من الشبان إلى قراءته فتستمال به قلوبهم ، لأن هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات .

والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون أنساً لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشدّ للنزهة في تلك الصور .

والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً .

والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة .

وقال بعد ذلك : قال عبد الله بن المقفع : لما رأيت أهل فارس قد فسروا هذا الكتاب من الهندية إلى الفارسية ، وألحقوا به باباً

وهو باب برزويه الطبيب ، ولم يذكروا فيه ما ذكرنا في هذا الباب لمن أراد قراءته واقتباس علومه وفوائده ، وضعنا له هذا الباب ..

والذي يفهم من مقدمة الكتاب أن أبوابه خمسة عشر باباً ولكنه لم يبين ما هي . ومن كلام ابن المقفع في باب عرض الكتاب أنه من وضعه ، وأن الفرس وضعوا باب برزويه ، فيكون مجموع الأبواب مع المقدمة ثمانية عشر باباً .

وقد قال ابن النديم عند الكلام على أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث : كتاب كليلة ودمنة . وهو سبعة عشر باباً ، وقيل ثمانية عشر باباً ، فسره عبد الله بن المقفع وغيره ، وقد نقل هذا الكتاب إلى الشعر : نقله أبان بن عبد الحميد بن لاحق ، وعلي بن داود إلى الشعر ، وبشر بن المعتمد ، والذي خرج بعضه ، ورأيت أنا في نسخة زيادة بابين .

وقد عملت شعراء العجم هذا الكتاب شعراً ، ونقل إلى اللغة الفارسية بالعربية ، ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات عملها جماعة ، منهم ابن المقفع وسهل بن هرون ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، والمريد الأسود الذي استدعاه المتوكل في أيامه من فارس .

ولم يوضح تلك الجوامع والانتزاعات التي عملها جماعة . ولعل هذه العبارة سقط منها شيء لو كان مذكوراً لكشف ناحية من الغموض فيها .

وزعم بعض الأدباء في هذا العصر أن أبواب الكتاب حين وضع في اللغة الهندية اثنا عشر باباً :

١ — باب الأسد والثور ٢ — باب الحمامة المطوقة ٣ — باب البوم والغربان ٤ — باب القرد والغيلم ٥ — باب الناسك وابن عرس ٦ — باب الجرذ والسنور ٧ — باب الملك والطائر فنزة ٨ — باب الأسد وابن آوى ٩ — باب اللبوءة والأسوار والشغبر ١٠ — باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت ١١ — باب السائح والصائغ ١٢ — باب ابن الملك وأصحابه .

ثم زيد في الترجمة الفارسية ثلاثة أبواب : ١٣ — مقدمة برزويه ١٤ — وباب بعثة برزويه ١٥ — وباب ملك الجرذان .

وهناك ستة أبواب لم تكن معروفة قبل الترجمة العربية : ١٦ — مقدمة الكتاب ترجمة بهنود بن سحوان ١٧ — باب عرض الكتاب لابن المقفع ١٨ — باب الفحص عن أمر دمنة ١٩ — باب الناسك والضيف ٢٠ — باب مالك الحزين والبطة ٢١ — باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

ثم فقد الأصل الهندي والترجمة الفهلوية ، ولم يبق من التراجم غير العربية التي ترجمها ابن المقفع ، وأنها تعدلت بين تصدير وتنقيح حتى بلغت أبوابها ٢١ باباً ، بعضها هندي الأصل ، والآخر فارسي ، والآخر عربي ، ولم يبين الأبواب الستة هل كلها من وضع ابن المقفع أم لا .

وفي النسخة المطبوعة بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت مقدمة ، لصاحب النسخة التي طبعت على مثالها ، يذكر فيها أن أبواب الكتاب ستة عشر بابًا ، الباب الأول بعثة كسرى لبرزويه وهو ملحق به ، والباب الثاني لبرزويه عمله بزرجمهر وجعله أول باب منه وليس منه ،

وأن أصل كتاب كليلة ودمنة أربعة عشر باباً سردها، ثم قال: فما نقص من هذه الأبواب فهو ساقط منه، وما زيد فيها فهو شيء ألحق به.

وقد قدمنا عن ابن المقفع أن الأبواب خمسة عشر فإذا أضيف إليها ما وضعه هو والفرس ومقدمة الكتاب كانت ثمانية عشر.

ولعل هذه الزيادة نشأت من تعدد الاسم لباب واحد، فإن في بعض النسخ أسماء لأبواب ليست في غيرها، وهذا التناقض يجعل بين الباحث وبين الحقيقة سداً منيعاً، ولا يقتصر هذا على أسماء الأبواب فحسب، بل يجد الباحث اختلافاً بيناً في النسخ التي يتداولها الناس اليوم، كما يجد بين ما في هذه النسخ وبين ما نقله ابن قتيبة في عيون الأخبار من كليلة ودمنة، وبين ترتيب أبواب الكتاب وأبواب نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة، وبين أسماء الأبواب فيه أيضاً، ونحو ذلك من ضروب التباين الذي يدل على أن هذا الكتاب أصابه قسط وافر من العبث والتحريف والتصرف، زيادةً ونقصاً..

هل الكتاب وضع ام ترجمة

اختلفت كلمة القوم في كليلة ودمنة فذهب فريقٌ إلى أنه من وضع الهند، وآخر إلى أنه من وضع الفرس، واتفق الفريقان على أن ابن المقفع ترجمه على التفصيل الآتي، وهناك فريق ثالث يرى أنه من وضع ابن المقفع، وهذه جملةٌ من كلامهم.

قال ابن النديم في المقالة الثامنة من الفهرست عند ذكر أسماء

الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات : وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الطير والبهائم جماعة ، منهم عبد الله ابن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعلي بن داود كاتب زبيدة ، وغيرهم . ثم قال :

فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف في أمره ، فقيل : عملته الهند ، وقيل : عملته ملوك الإسكانية ونحلته الهند ، وقيل : عملته الفرس ونحلته الهند ، وقال قوم : إن الذي عمله بزرجمهر الحكيم أجزاء ، والله أعلم بذلك .

وقال ابن حجر في لسان الميزان فى ترجمة ابن المقفع : وهو الذي عرّب كليلة ودمنة .

وقال القفطي في إخبار العلماء بأخبار الحكماء في ترجمته : وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكتاب كليلة ودمنة .

وقال ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ١ ص ٣٠٨ في ترجمة برزويه . وإنه هو الذي جلب كتاب كليلة ودمنة من الهند إلى أنوشروان بن قباذ ، وترجمه له من اللغة الهندية إلى الفارسية ، ثم ترجمه في الإسلام عبد الله بن المقفع الخطيب من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية .

وزعم بعض المستشرقين أن بعض الباحثين عثر على الترجمة السريانية القديمة التي ترجمت من اللغة الفهلوية القديمة في دير ماردين ونشرها

سنة ١٨٧٦ وزعم آخر أن الاستاذ هِرْتل عثر على بعض الأصول الهندية الأولى وهي مكتوبة باللغة السنسكريتية القديمة .

وأن غيره عثر على بعض أبواب من الكتاب مفرقة ، فعثروا في كتاب على باب الأسد والثور ، والحمامة المطوقة ، والبوم والغربان ، والقرد والغيلم ، والناسك وابن عرس .

وعثروا في كتاب آخر على باب الجُرَذ و السِنَّوْر ، والملك والطائر فنزة : والأسد وابن آوى .

وعثروا في كتاب آخر على باب ملك الفيران .

وعثروا على باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت ، وباب السائح والصائغ ، وابن الملك ورفقائه ، . . .

ولا شك أن أصل هذه القصص هندي ، ولكنهم لم يعثروا على كتاب واحدٍ جمع ما تفرق منها ، اسمه كليلة ودمنة :

ولا ظهر لدى معارضة ما عثروا عليه من هذه الفصول أنه مطابقٌ تمام المطابقة لما في نسخ كليلة ودمنة التي بين أيدينا ، بل تبين أن بينهما فرقاً كبيراً .

واستظهر بعض الأدباء من هذا الاختلاف أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب كلمة بكلمة وجملة بجملة ، وإنما تصرف في ألفاظه وجمله ومعانيه أيضاً وترتيبه ، فكان يحذف بعض الجمل ويضع غيرها مكانها ، وقد يضع فصلاً كاملاً ، حتى جعل ذلك الكتاب ملائماً للذوق العربي الإسلامي .

وهذا – إن صح – أشبه بالوضع منه بالترجمة ·

وزعم آخر أن مقدمة الكتاب وضعها علي بن الشاه الفارسي بعد ابن المقفع ·

وزعم آخر أن بهنود بن سحوان ·· هو أبو القاسم عليّ بن محمد ابن الشاه الظاهري من ولد الشاه بن ميكال ·

وزعم آخر أن أصل الكتاب الهندي فُقد ، ثم فقدت ترجمته الفارسية وغيرها ··

إلى غير ذلك من المزاعم التي لم تؤيد بدليل ينير السبيل ويزيل الشبهة ، ولعل سبب هذه المزاعم كلها هو أن الكتاب اشتهر بأن أصله هندي ، وأن ابن المقفع أورد فيه كثيراً من القصص الهندية ، منها ما يطابق ما أورده في معناه ، ومنها ما يزيد وينقص ، فخيل لبعض الباحثين أنه نقل الكتاب بجملته من الفارسية المنقولة عن الهندية ·

وصفوة القول أن كلمة المتقدمين تكاد تتفق على أن ابن المقفع ترجم هذا الكتاب على الوجه الذي ذكرنا ، ولم يضع إلا بعض الأبواب ·

ولو قيل : إن ابن المقفع وضع الكتاب وضعاً واستعان فيه ببعض القصص الهندية لكان ذلك غير بعيد · وقد يشهد لهذا أمور :

الأول أننا إذا سلمنا أن الأصل الهندي والفارسي قد فقدا ، أفلا يجوز أن يبقى منهما شذرات في كتب الهند والفرس ؟ وما اطلعنا فيما نقله الأدباء من كتبهما على ملك في الهند اسمه دبشليم وحكيم اسمه بيدبا في

غير كليلة ودمنة ، ولو كان لتضافرت الروايات على نقله ، ومن البعيد أن يغفل الفرس — على شدة عنايتهم بمثل هذا الكتاب — ذكر شيء منه أو عنه في كتبهم الأدبية والتاريخية ، وقد ترجم العرب معظمها ولم ينقلوا فيما ترجموه شيئاً من ذلك ، بل المعروف أن الفرس نقلوه عن العربية ، مع أنه يجوز أن يكون شيء من هذا ولكننا لم نطلع عليه ، وبناء الحكم على الظن لا يفيد القطع واليقين .

الثاني أن وجود بعض الأبواب مبعثرة في الكتب المتعددة لا يوجب أن تكون هي الكتاب بعينه ، لاسيما وأن فيها مخالفة لأبواب الكتاب زيادة ونقصاً .

الثالث إذا جاز أن يضع ابن المقفع بعض الأبواب بأسلوب لا يختلف عن بقية أبواب الكتاب في سداه ولحمته ، وأغراضه ومناحيه ، جاز أن تكون بقية الأبواب من وضعه ، وليس ذلك من المستحيل أو البعيد .

الرابع أن ما ادعاه بعض المستشرقين من أن المقدمة لعلي بن الشاه الظاهري لا يخرج عن كونه شبهة ، لأن المتأمل لا يجد بين المقدمة وبين بقية أبواب الكتاب فرقاً من حيث الأسلوب والغاية والمعنى ، ولو كانت لعلي لنقل الناس ذلك جيلاً بعد جيل ، وإثبات ذلك يفتقر إلى دليل يؤيده . على أن صاحب الفهرست لم يذكر ذلك في جملة كتبه وآثاره .

الخامس أنه تبين لدى معارضة الأصول التي عُثر عليها بنسخ كليلة ودمنة التي بين أيدينا أن بينها فرقاً كبيراً كما تقدم ولبست هي بعينها ·

السادس أن نقل القصص الهندية وما فيها من الحكم والأمثال — إذا اقتضى أن يكون الكتاب كله منقولاً — فمن الواجب أن يقال إن كتاب الأدب الصغير والكبير منقولان ، لأن فيهما كثيراً من الجمل والحكم المذكورة في كليلة ودمنة ، ومنها ما اتفق فيه اللفظان ، وبينهما وبينه شبه قوي ونسب محكم في الأسلوب والغرض ، لا سيما في باب الصديق والسلطان ، مع أن كلمة الجمهور متفقة على أنهما من وضعه وجمعه ، لا مما ترجمه ·

السابع أن في الكتاب كثيراً من العناصر العربية الإسلامية ، والمواضعات التي اصطلح عليها أهل العصر العباسي ، في القضاء والبحث عن الجرائم والتقصي في الأدلة ، وفيه تحية المسلمين · فقد قال في باب الملك والطائر فنزة : وأنا أقرأ عليك السلام ، وفيه ذكر العنقاء وهي من مزاعم العرب ، وفيه ، وفيه ، وختم الكتاب بقوله : ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم · وفيه كثير من الشواهد والأدلة التي تقدمت والتي ستأتي ، وكلها تدل على أنه وضع بعد الإسلام ·

الثامن أن الجاحظ على قرب عهده من عصر ابن المقفع ، وشدة تنقيبه وتمحيصه ، لم يستطع أن يجزم بأن مثل هذا الكتاب غير مصنوع على لسان الأعاجم ، فقد قال في البيان والتبيين ٣ : ١٦ عند الكلام على بداهة العرب ومزاعم الشعوبية :

ونحن لانستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ،وقديمة غير مولدة ،إذا كان مثل ابن المقفع وسهل ابن هرون وأبي عبيدالله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لايستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا تلك السير ..

وهذا وأمثاله يرجح أن الكتاب من وضع ابن المقفع ، وأنه استعان فيه ببعض القصص الهندية ، كما استعان بعناصر أخرى .

وإنما نسبه للهند طمعاً في انتشاره ورواجه ، وحذراً من أن يتخذه خصومه ذريعةً للتنكيل به ، لاشتماله على كثير من انتقاد الحكومة والنعي على سياستها .

ويؤيد هذا أيضاً أن ابن قتيبة قال في عيون الأخبار ١ : ٢٦٣ :

وقرأت في كتاب للهند أن ناسكاً له عسل وسمن في جرّة ، ففكر يوماً فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري خمسة أعنز، فأولدهن في كل سنة مرتين ، ويبلغ النتاج في سنين مائتين ، وأبتاع بكل أربع بقرة،وأصيب بذراً فأزرع ،وينمي المال في يدي فأتخذ المساكن والعبيد والإماء والأهل ويولد لي ابن فأسميه كذا ،وآخذه بالأدب ، فإن هو عصاني ضربت بعصاي رأسه ، وكانت في يده عصا فرفعها كيًا للضرب فأصابت الجرّة فانكسرت ، وانصبّ السمن والعسل على رأسه .

وهذه القصة أوردها ابن المقفع في كليلة ودمنة بأبسط من هذا في باب الناسك وابن عرس فقال :

زعموا أن ناسكاً كان يجري عليه من بيت رجلٍ تاجر في كل يوم رزقٌ من السمن والعسل ، وكان يأكل منه قوته وحاجته ، ويرفع الباقي ويجعله في جَرّة فيعلقها في وَتِدٍ في ناحية البيت حتى امتلأت ، فبينما الناسك ذات يوم مستلقٍ على ظهره ، والعكازة في يده ، والجرّة معلقة فوق رأسه ، تفكر في غلاء السمن والعسل فقال : سأبيع ما في هذه الجرة بدينار ، وأشتري به عشر أعنز ، فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر مرة ، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تصير معزاً كثيراً إذا ولدت أولادها ، ثم حرر على هذا النحو بسنين ، فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز فقال : أنا أشتري بها مائة من البقر بكل أربعة أعنز ثوراً أو بقرة ، وأشتري أرضاً وبذراً وأستأجر أَكَرَةً على الثيران ، وانتفع بألبان الإناث ونتائجها ، فلا تأتي عليّ خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالاً كثيراً ، فأبني بيتاً فاخراً ، وأشتري إماءً وعبيداً ، وأتزوج امرأة صالحة جميلة ، فتحمل ثم تأتي بغلام سَرِيٍّ نجيب ، فأختار له أحسن الأسماء ، فإذا ترعرع أدّبته وأحسنت تأديبه ، وأشدد عليه في ذلك ، فإن قبل مني وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها فسال ما فيها على وجهه .

وقال أيضاً في عيون الأخبار : وقرأت في كتاب من كتب الهند : شر المال ما لا ينفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البريء ، وشر البلاد ما ليس فيه خِصبٌ ولا أمن .

وهذه الجمل أوردها ابن المقفع في باب الملك والطائر فنزة فقال : وشر المال مالا إنفاق منه ، وشر الأزواج التي لا تؤاتي بعلها ، وشر الولد العاصي العاق لوالديه ، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد ، والذي يحصي السيئات ويترك الحسنات ، وشر الملوك الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته ، وشر البلاد بلاد لا خصب فيها ولا أمن .

وقال في عيون الأخبار : قرأت في كتاب للهند أن رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال له : أيها الملك نصيحتك واجبة في الحقير والصغير ، بله الجليل الخطير ، ولولا الثقة بفضيلة رأيك واحتمالك ما يسوء موقعه من الأسماع والقلوب ، في جنب صلاح العاقبة ، وتلافي الحادث قبل تفاقمه ، لكان خرقاً مني أن أقول ، وإن كنا رجعنا إلى أن بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفسنا معلقة بنفسك ، لم أجد بداً من أداء الحق إليك ، وإن أنت لم تسألني ، أو خفت أن لا تقبل مني ، فإنه يقال : من كتم السلطان نصحه ، والأطباء مرضه ، والإخوان بثه ، فقد خان نفسه .

وقد أوردها متفرقة في كليلة ودمنة في باب الأسد والثور حيث يقول : وإنك أيها الملك لذو فضيلة ، ورأيك يدلك على أن يوجعني أن أقول ما تكره ، وإني لواثق بك أنك تعرف نصيحتي وإيثاري إياك على نفسي ، وإنه يعرض لي أنك غير مصدقي فيما أخبرك به ، ولكني إذا تذكرت وتفكرت أن نفوسنا معاشر الوحوش متعلقة بك ، لم أجد

بدًا من أداء النصح الذي يلزمني ، وإن أنت لم تسألني ، أو خفتُ أن لا تقبله مني ، فإنه يقال : من كتم السلطان نصيحته ، والأطباء مرضه ، والإخوان رأيه ، فقد خان نفسه .

وقال في عيون الأخبار : وقرأت في كتاب للهند : ليس من خلّة يُمدح بها الغني إلا ذُمَّ بها الفقير ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان وقوراً قيل بليد ، وإن كان لَسِناً قيل مِهذار ، وإن كان زِمّيتاً[١] قيل عَيِيّ .

وهذه أوردها ابن المقفع في كليلة ودمنة وفي الأدب الصغير ببعض تصرف وزيادة كما سيأتي .

وقال في عيون الأخبار : وقرأت في كتاب للهند : خير السلطان من أشبه النَّسر حوله الجِيَف ، لا من أشبه الجيفة حولها النسور .

وقد أوردها ابن المقفع في باب الأسد والثور هكذا : وقد يقال : خير السلاطين ... الخ . وبعد كل ما تقدم فلا نعدّ من المستحيل أن يكون للهند كتابٌ يحتوي على كل هذه القصص ، ألفه رجل واحد ، ثم نقله الفرس إلى لغتهم ، أو أن تكون هذه القصص كانت متفرقةً لأشخاص متعددين فوحدها الهنود أو الفرس في كتاب ، ونسبوه إلى مؤلف واحد . أو أن يكون من وضع بيدبا على الوجه المتقدم ، ولكن ذلك كله من باب الظن والحدس ، لا يفيد اليقين ، ولا يستند إلى برهان قاطع .

(١) الزِّمِّيت : كثير الوقار .

سبب تأليف الكتاب او ترجمته

ذهب بعض الأدباء إلى أن ابن المقفع كان يميل إلى الإصلاح الاجتماعي ، وأنه تعمق في درس الحياة الاجتماعية في عصره ، فرأى كثيراً مما لا يحمده من الأمور ، ومعظمها يرجع إلى حكام عصره ، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة . فلم يستطع أن يواجه الخليفة وبطانته بالنقد الصريح ، وكان زمن نضج فكره في زمن المنصور الشديد البطش ، فرأى موقفه معه موقف بيدبا مع دبشليم ؛ فترجم هذا الكتاب وزاد فيه ، ليكون له من الأثر في الخلفاء والرعية ما كان في الهند وفارس .

وهذه الأسباب حسنةٌ بحسب الظاهر ، ولكننا إذا تصورنا المنصور كما ذكره هذا الأديب أنه شديد البطش ، سريعٌ إلى إعمال السيف ، يقطع رأس كل مخالف ، ويقتل بالظِنَّة ، وجدنا من البعيد أن يقدم ابن المقفع على وضع هذا الكتاب أو ترجمته ، لأنه يعلم أن المنصور لا بد أن يطلع عليه ، وأنه لا يخفى عليه ما فيه من النقد ومَن المراد به .

والذي أظنه أن ابن المقفع ما وضع هذا الكتاب أو ترجمه إلا ليظهر قدرته على الترجمة أو التأليف ، وبراعته في صناعة الإنشاء ، ولم يجعله درساً في الإصلاح الاجتماعي .

وكذلك كان غرض كل من ترجمه إلى غير العربية ، أو نظمه في العربية ، أو عارضه .

مباحث كليلة ودمنة واغراضه

أكثر مباحث هذا الكتاب تدور حول السلطان والوالي ، وما لهما من الحقوق وما عليهما ، وما لهما من آداب الصحبة والمعاشرة والمجالسة ، وما يجب على من يريد مصاحبة السلطان أو الوالي ، من الإخلاص وكتم السر ، واطراح الوشاية والغش والخديعة ، ونحو ذلك . وقد شغل السلطان حيزاً عظيماً من هذا الكتاب . وفيه أيضاً ما يتعلق بالصداقة ، ومن يجب أن يتخير من الأصدقاء ، وما يجب أن يعامل به الصديق ، وماله وما عليه من الحقوق .

وفيه أيضاً الحض على الاحتراس من الصديق والناس ، وعلى الإقدام والمروءة ، وحسن المعاشرة ، والصدق والوفاء ، والأمانة والإخلاص ، والتقوى والزهادة في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، وما شاكل ذلك من الأخلاق الفاضلة .

وفيه تنفير من أضدادها .

وهذه كما ترى كلها عناصر إسلامية عربية ، إلا التغالي في تعظيم السلطان وما يتعلق به ، فإنه عقيدة فارسية . وقد اكتفيت بما أوردته من الأمثلة عن جمع كل غرض منها إلى مثله ، وبيان رأيه فيه ، والتوسع في سرد كل ما يشتمل عليه الكتاب من المقاصد والأغراض ، حذراً من الإسهاب الممل .

نظم ومعارضة

وقد أولع الناس بهذا الكتاب فنظمه جماعة ، منهم أبو سهل الفضل ابن نوبخت ، ولم يذكره صاحب الفهرست في كتبه .

ومنهم علي بن داود كاتب زبيدة .

ومنهم بشر بن المعتمد .

ومنهم أبان بن عبد الحميد اللاحقي الرقاشي [١] .

ومنهم ابن الهبّارية المتوفى سنة ٥٠٤ سماه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة وقد ذكر ابن الهبّارية في ترجمته أنها خير من ترجمة أبان .

وله نظم ثالث سماه درر الحكم في أمثال الهنود والعجم ، أكمله عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني ، من رجال القرن السابع وهو في مكتبة فينا .

ومنهم ابن مماتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦

ونظمه جلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع .

وعارضه جماعة منهم سهل بن هرون أحد كتاب المأمون المتوفى سنة ١٧٣ وضع كتاباً نظماً سماه ثعلة وعفرة .

ومنهم أبو العلاء المعري فقد ذكر في كشف الظنون أنه ألف كتاباً أسمه القائف على مثال كليلة ودمنة ، وهو في ستين كراسة ولم يتم ، وأنه ألف كتاباً اسمه منار القائف يتضمن تفسيره في عشرة كراريس .

وألف ابن الهبارية كتاب الصادح والباغم على مثال كليلة ودمنة ، وكله نظم

---

(١) الفهرست ص ١٧٢ و ٤٢٤

وألف أبو عبيد الله محمد بن أبي قاسم القرشي المعروف بابن ظفر المتوفى سنة ٥٦٥ كتاباً سماه سلوان المطاع في عدوان الاتباع على مثال كليلة ودمنة صنفه لبعض القواد في صقلية ·

وألف أحمد بن عربشاه الحنفي كتاباً سماه فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء على مثال كليلة ودمنة ·

وفي رسائل إخوان الصفا رسالة في المناظرة بين الحيوان والإنسان شبيهة بكليلة ودمنة ، وفيها ذكر هذا الاسم ·

وفي دار الكتب المصرية كتاب لم يعرف مؤلفه اسمه كتاب الأسد والغواص وهو على نسق كليلة ودمنة ·

وقال في تاج العروس : وقد ترجمه بالفارسية نظماً أبو المعالي نصر الله ابن محمد بن عبد الحميد لأحد ملوك غزنة ·

وترجم إلى كثير من اللغات الأعجمية ·



الأدب الصغير

لم نوفق إلى معرفة من سماه بهذا الاسم ، ولا إلى سبب تسميته به ، ولعل سبب ذلك أنه أصغر حجماً من الأدب الكبير ، فسمي هذا الصغيرَ وذاك الكبير ، بحسب قدرهما للتفرقة بينهما .

وهو كتاب صغير الحجم ، كبير الفائدة ، يشتمل على جملة من الحكم الرائعة ، والموعظة الحسنة ، فيما يجب على العاقل والسلطان والوالي وفيما يجب على من يحاول صحبتهما ، وعلى فضل العلم والأدب والأخلاق والإخوان والأعوان والمال ، وعلى مجانبة بعض الأخلاق الذميمة ، وقد ذكره ابن النديم في جملة مانقله ابن المقفع من كتب الفرس ، أما ابن المقفع فقد صرّح في مقدمة الكتاب أن كل مافيه ليس من كلامه حيث يقول: وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عونٌ على عِمارة القلوب وصقالها ، وتجلية أبصارها ، وإحياءٌ للتفكير وإقامةٌ للتدبير ، ودليلٌ على محامد الأمور ومكارم الأخلاق ، إن شاء الله تعالى .

استهل كتابه هذا بمقدمة ذكر فيها أن لكل مخلوقٍ حاجة ، ولكل حاجة غاية ، والله وقّت للأمور أقدارها ، وهيأ إلى الغايات سبلها ، وأن غاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل إلى دركها العقل ، وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ، وأن للعقول غرائزَ بها تقبل الأدب ، وبالأدب تنمي العقول ، وأن جُلّ الأدب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعلم ، ليس حرفٌ منه إلا وهو مروي عن إمام سابق ، واستدل بذلك

على أن الناس لم يبتدعوا أصولها ، ولم يأتهم علمها إلا من قبل العليم الحكيم .

وقد أورد في هذا الكتاب طائفة من حكمه الرائعة ، وكلمه الطيب ، في أغراض مختلفة ، ولم يضم كل نوع منها إلى جنسه ، ولا جمعه في باب واحد ، وإنما أتى بها متواشجة متداخلة ، فرأينا أن نضم بعض المتجانس أو المتشابه إلى بعضه الآخر بقدر الإمكان ، ليسهل الاطلاع عليه جملة ، وليتضح رأيه في كل غرض منها .

العقل والعاقل

ذكر كثيراً من الأمور المتعلقة بالعقل والعاقل وما ينبغي له .

منها قوله المتقدم في المقدمة : والسبيل إلى دركها العقل .. وأن للعقول غرائز ، ومنها قوله : وأشد الفاقة عدم العقل ، ولا مال أفضل من العقل ، والقسم الذي يقسم للناس .. حارس وهو العقل ، ومحروس وهو المال ، والعقل هو الذي يحرز الحظوظ ، ويؤنس الغربة ، وينفي الفاقة ، ويثمر المكسبة ، ويوجه السوقة عند السلطان ، ويكسب الصديق وينفي العدو .

ومال العاقل العقل ، ولا مال أفضل من العقل .

ثم ذكر الخصال الست التي تتم بها حياة العقل . وأن المروءات تبع للعقل .

والعاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره وفيما يؤثر من ذلك ، فيضع الرجاء والخوف فيه موضعه ، ويخاصم نفسه ويحاسبها .. ويحصي مساوئه في الدين والرأي والأخلاق ، والآداب ويتفقد محاسن الناس ويحفظها ، ولا يخادن ولا يجاور إلا ذا فضل .. ولا يحزن على شيء فاته في الدنيا

ويؤنس ذوي الألباب بنفسه .. ولا يشغله شغل عن ساعة يرفع فيها حاجة إلى ربه، وثانية يحاسب فيها نفسه ، وثالثة يفضي فيها إلى إخوانه ، ورابعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل .. ويجعل الناس طبقتين : عامةً يلبس لها لباس انقباض وتحفظ . وخاصةً يلبس لها لباس الأنسة واللطف .. ولا يستصغر شيئاً من الخطإ .. ويجبن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً .. وإذا اشتبه عليه أمران حذر أهواهما عنده ويتخذ مرآتين ينظر من إحداهما إلى مساوئ نفسه ، ومن الأخرى في محاسن الناس . ولا يستخف بأحد . ويبتغي إلى كل معروف سبيلاً ، ولا يستكثر معروفاً صنعه .

ثم أفاض في بيان ما يسلم به العاقل من الذنوب والعيوب ، وما من شأنه أن يفعله

السلطان والوالي

وكذلك ضمن هذا الكتاب أموراً تتعلق بالسلطان والوالي ، أعرب فيها عما يعتقده ويراه فيهما ولهما وعليهما .

فذكر أن أبواب السلطان يسعى إليها أجناس : أما الصالح فمدعوٌّ ، وأما الطالح فمقتحم ، وأما ذو الأدب فطالب .

وأن السلطان لا يستطاع إلا بالوزراء والأعوان ، والوزراء بالمودة والنصيحة ، ولا تنفع المودة إلا مع الرأي والعفاف .

وأن للسلطان حقاً لا يصلح أمر إلا بإرادته ، ومن ذلك النصيحة له

والطاعة ، وكتم السر ، والذبّ عنه ، والإيثار لهواه ، وتقدير الأمور على موافقته ، وحمده على الخير والشر .

وأن الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحَزَمَة ، والمستشير يزداد برأي المستشار ، والملك المُعْجَب لا يطمع في ثبات الملك .

وأحق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بمواضع الشدة واللين .

والولاية بلاء عظيم ، وعلى الوالي الاجتهاد بالتخير للعمال والوزراء ، والمبالغة في التقديم والتعهد والجزاء .

وعلى الإمام أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة ، وعلى الملوك تعهد عمالهم وتفقد أمورهم .

وقد ذكر أموراً إذا ضيّعها العامل حكم عليه عقله بمقارنة الجهال .

الدين والورع

ولم يخل كتابه هذا من حكمة لها اتصال وثيق بالدين يوضح بها رأيه فيه وفيما يتصل به من الورع .

فهو يعظم الدين ، ويعتقد أن الدين أفضل ما وهب الله خلقه ، وأعظمها منفعة ، والدين لا يزال إما زائداً أو ناقصاً . والدين والرأى قد يشتبهان في أماكن . وقد أوضح الفرق بينهما .

وأسهب في بيان الوَرَع ، وبين أن الوَرِع والأديب لا يخدعان ، وأضاف إلى ذلك ذكر المفرطين في أمور يندمون عليها ، وأتبعه أموراً لا تصلح إلا بقرائنها ، فلا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عقل ، ولا الجمال

بغير حلاوة، ولا الحسب بغير أدب، ولا الغنى بغير جود، ولا السرور بغير أمن ·

وبيّن أصل العقل والورع والتوفيق، وثمرة كلّ منها ·

ونبّه إلى ما في خلق الله من الآيات الدالة على ربوبيته ·

الدنيا

وتصدى في كتابه إلى الدنيا، وبين أنها انتُزعت ممن قد استمكن منها، وأن لها زخرفاً يغلب الجوارح مالم تغلبه الألباب ·

الناس

ابن المقفع تعمق في درس الحياة، وتغلغل في البحث والتنقيب عن أحوال الناس، وعُني بدرس أخلاقهم، فأودع كتابه هذا شيئاً مما أرشده إليه بحثه واستقراؤه، فقد ذكر في عُرض كلامه في هذا الكتاب · أن الناس مدخولون في أمورهم إلا قليلاً ممن عصم الله، فالقائل منهم باغٍ، والسامع عياب، والسائل متعنت، والمحب متكلف، والأمين غير متحفظ من إتيان الخيانة، وبين أحق الناس بالسلطان والتدبير والفضل والعلم والغنى وأقربهم من الله، وأصوبهم رجاء، وأرضاهم وأقواهم وأشجعهم، وأحقهم بالمودة، وأطولهم راحة، وأظهرهم جمالاً، وأحقهم بالنعم ·

المال والفقر

ويذهب في كتابه هذا إلى أن المال يظهر المروءة، وأن التبع والأعوان والصديق إنما يكونون للمال ·

وأطال القول فيما يجره الفقر من مقت الناس والإيذاء، وذهاب العقل

والحياء والسرور ، وقلب الحسن قبيحاً ، حتى إن كل خلة يمدح بها الغني هي عيب للفقير .

العلم والأدب

ولقد كان لهذا الغرض نصيب وافر من كلامه ، فقد أفاض في فضل العلم والأدب ، وبين أن فضل العلم في غير الدين مهلكة ، وكثرة الأدب في غير رضى الله ومنفعة الأخيار تقود إلى النار ، وذكر الحاجة إلى الأدب والاجتهاد والرأي والتوفيق وغيرها ، وأن كل اثنين منها زوج ، وبين ما يدل على علم العالم من التسوية بين قلبه ولسانه وحسن مخالفته ، وما يعلم به علم العالم وصلاح الصالح ، وأن أفضل ما يرثه الأبناء من الآباء الثناء الحسن والأدب والإخوان الصالحون .

الجاهل

وألم أيضاً في كتابه هذا بكثير مما يتعلق بالجاهل ، فذكر خصالاً يسر بها وهي وبال عليه ، وأن الجاهل لا يؤمن شره لقرابة أو جوار أو إلف .

الإجمال

وهو في خلال كلماته يجمع صنوفاً مختلفة في حكمة واحدة ، ويسرد جملاً فيها من كل وادٍ عصا .

فقد سرد مضار الأخلاق الذميمة كالعجب واللجاجة والبخل والمراء والحمية والأنفة والمنافسة .

وبين أن الإنسان يجب عليه أن يكون سؤولاً فصولاً بين الحق

والباطل ، صدوقاً شكوراً جواداً، أهلاً للخير ، رحيماً ودوداً ، حافظاً للسانه ، متواضعاً ، لا يحسد ، مسرّاً للناس الخير ، حَيِيّاً حذِراً ·· وذكر عقب كل خُلق علته وسببه .

وذكر أفضل أعمال البر ، ورأس الذنوب ، وعلامات اللئيم ، وحذّر من خصومة الأهل والولد والصديق والضعيف ، ونهى عن مؤاخاة الخَبّ ، واستنصارِ العاجز ، والاستعانة بالكسل .

وبين السعيد والشقي ، والجواد والبخيل ، والمسرف ، وأغنى الناس ، وما يدل على سخافة المتكلم .

وذكر أربعة لا يستقل منها قليل : النار ، والمرض ، والعدو ، والدّين .

وأن الكريم يودّ عن لقاءة واحدة أو معرفة ، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة ، وسرد مضارّ الحرص والشره ، ومنافع التدبير والكف وحسن الخلق والرضا والبر والمعرفة وصحبة الإخوان .

وبين أشياء لا ثبات لها ، وأولى الناس بالسرور والثناء وأغبطهم .

وأوضح في خاتمة كتابه أن في بقاء الأخ معونة على تسلية الهموم ، وأن الإنسان موكل به البلاء ، لا يدوم له شيء ، ولا يخلّف عقبة من البلاء حتى يصير إلى أخرى .

* * *

هذه صفوة ما في كتاب الأدب الصغير من العناصر التي تألفت منها مادته ، وقامت عليها فيه حكمته .

وهو كما ترى طافح بالحكمة الناشئة من درسه الحياة درساً عميقاً ، ومما اكتسبه من التجارب ، واقتبسه من الحكماء ، وفيه كثير مما أورده في كتاب كليلة ودمنة ، منه ما جاء بلفظه ، ومنه ما اشتمل على زيادة ونقص كما سنبينه .

اسلوبه فيه

وأسلوبه في كليلة ودمنة أرق وأسلس من أسلوبه في الأدب الصغير ، لأنه ساقه مساق الحكماء ، وليس في كثير من جمله وحكمه ارتباط وثيق . فقد تأتي فيه جملة تتعلق بحالة نفسية ، وتأتي إلى جانبها أخرى تتعلق بالحالة السياسية أو الدينية ، وإلى جانبها ثالثة تتعلق بالصديق ، ورابعة بكتم السر ، وخامسة فيما يجب على العاقل .. وهكذا .

يسرد الحكم في جمل متتابعة ، لا تربطها رابطة ، ولا تجمعها آصرة ، إلا رابطة الحكمة ، فمثلها كمثل العقد المؤلف من لؤلؤة وشذرة ومرجانة ونحوها ، لا جامع بينها إلا السمط .

وقد سلك في العزو طريقاً غير مطرد ، فتارة يقول : قالت الحكماء ، وأخرى : قالت العلماء ، وأحياناً يقول : قال . من غير أن يبين القائل ، أو يأتي بالشيء من غير إسناد .

وفي هذا الكتاب أثر للثقافة الفارسية ، يتمثل فيما يتعلق بالسلطان والوالي ، وأعظم أثر فيه للثقافة العربية الإسلامية يتمثل في الأعمال الصالحة ، والترغيب في الآخرة والثواب ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة ، والكتاب طافح بالشعور الإسلامي ، مفعم بالروح العربية .

الأدب الكبير

وهذا الكتاب في الآداب والحكم والموعظة ، وأكثر الكلام فيه يدور حول السلطان والولاة ومن يتصل بهما ، والصداقة والصديق ، وآداب المحادثة والمجالسة وما شاكلها ، وهو يشبه الكتاب الأول في غايته وأسلوبه ، ويخالفه في طول فصوله ، وترتيب حكمه في أكثر المواطن ، وجمع كثير من المتشابه منها إلى مثله .

وقد ذكره ابن النديم في جملة ما نقله ابن المقفع من كتب الفرس ، وقال : إنه يعرف بما قرا حسيس ولم أفهم هذه الجملة . ولكن كلام ابن المقفع في المقدمة يشعر بأنه من وضعه ، وأنه استمده من حكم الأولين ، لأنه يقول فيها :

إن الناس قبلنا كانوا أعظم أجساداً ، وأوفر أحلاماً . . . وأنهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل ، حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة ، فكتبوا به الكتب الباقية ، وكفونا مؤونة التجارب ، فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ، ومنهم يستمع ، غير أن الذي نجد في كتبهم هو المتخل من آرائهم ، والمنتقى من أحاديثهم ، ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ

في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه ، فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ، ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس .

فهذا صريح في أن بعض ما في هذا الكتاب مشتق من حكم الأولين وقولهم ، وأنه هو الذي اشتقه منها .

وقد افتتح الكتاب بعد المقدمة بقوله : يا طالب الأدب اعرف الأصول والفصول . ثم قفى على آثار ذلك ببيان الأصل في أمور : في الدين ، وإصلاح الجسد ، والبأس ، والجود ، والكلام ، والمعيشة .

ثم انتقل على أسلوب الواعظين إلى أشياء من الأخلاق اللطيفة ، والأمور الغامضة ، وابتدأ بالإمارة وما يتعلق بها .

الإمارة

وبجمل ما يراه في هذا . أن الملك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى .

وأن من ابتلي بالإمارة عليه أن يتعوذ بالعلماء ، ولا يحب التزكية والمدح ، وأن يبتغي من الولاية رضى ربه وسلطانه وصالح من يلي عليه ، ويعرف أهل الدين والمروءة ، ولا يلتمس رضى جميع الناس ، وأن يكون خبيراً بأمور عماله ، ويعود نفسه الصبر على من خالفه ، ولا يترك مباشرة جميع أمره ، ويفرغ رأيه للمهم ، ويختص بماله ذوي الحقوق ،

وبكرامته أهل الفضائل ، ويقسم ليله ونهاره بين دعته وراحته ، ولا يعاقب من لا ذنب له ، ولا يكون نزر الكلام ، ولا يفرط بالرضى والبشاشة ، ولا يغضب ، ولا يكذب ، ولا يبخل ، ولا يحقد ، ولا يكون حلافا . ويتهم نظره وقلبه ، ويتفقد أمور الرعية ، ولا يلوم على الزلة ، ولا يولع بسوء الظن ، وأن يتثبت عند القول والفعل ، ويكون للبر والمروءة عنده نفاق .

صحبة أولي الأمر وآدابها

ثم انتقل إلى صحبة الملوك والولاة ، وأفاض في بيان ماتطلبه من الاحتراس وعدم الاغترار بقرب المنزلة منهم .

فمن صحب الملوك وجب عليه أن لا يحدث له الاستئناس غفلة ، ومن جعله الملك أخا فليجعله أبا ، ويجب على من نزل منزلة الثقة من الوالي أن يعزل عنه كلام الملق ، ولا يكثر الدعاء له ، ولا يصحبه إلا على شعبة من مودة أو قرابة . وأن يصحح رأيه ولا يشوبه بشيء من الهوى ، ولا يغالبه بالتحويل عما يحب ويكره ، ولا يخبره أن له عليه حقا ، ولا يقع في قلبه تعتب عليه ، ولا يحضر عنده كلاما لا يعنى به ، ويجانب المسخوط عليه والظنين به عنده ، ولا يتغير على أحد من أهله وأعوانه إذا أصاب الجاه عنده ، ولا يطمح كل الطماح ، ولا يسار أحدا بشيء يخفيه عنه ، ولا يتهاون بالكذبة عنده .

وأن لا تكون صحبته للسلطان إلا بعد رياضة منه على طاعته في المكروه ، وموافقته فيما خالف ، وتقدير الأمور على ميله ، والاجتهاد في رضاه ، والتصديق لمقالته ، والتزيين لرأيه .

وإذا سأل الوالي غيره فلا يُجب ، وإذا كلمه فليصغ ، ولا يَشغل عنه طرفه وأطرافه بنظر أو عمل ، وليرفق بوزرائه ودُخلائه ويتخذهم إخواناً ولا يَشْكُ إليهم ما اطلع عليه من رأي يكرهه له . ولا يخالف أصحابه عنده . وإن وجد عن صحبته غنى فليعتزله .

هذه خلاصة ما ذكره في السلطان والوالي وأولي الأمر ، وصفوة ما يراه مما يجب لهم وعليهم وعلى من أراد صحبتهم .

وقد تبين مما أسلفنا ذكره أن ابن المقفع ولد في خلافة هشام ، وتوفي في خلافة المنصور ، وقد كان في هذا العهد للخلفاء والولاة من الجبروت والقسوة ما يخلع القلوب هلَعاً ، وفيه اضمحلت دولة كانت شديدة البأس ، وقامت على أنقاضها دولة أشد بأساً ، وكان الخلفاء في ذلك العهد مضطرين إلى شيء من القسوة والإرهاب ، وإطلاق أيدي العمال في ذلك للمحافظة على ملك دبّ فيه الفساد ، وسرى الاضمحلال في عروقه ، وتوطيد ملك جديد قام على أيدي فئة لم يكن عملهم عن إخلاص وصدق ، فانتزع الخلفاء وعمالهم من قلوبهم كل رحمة ورأفة بالمتمردين على سلطانهم ، ولم يألُ العمال جهداً في البطش والتنكيل بأعدائهم وخصومهم ، وتقاعس الخلفاء عن مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء ، وألقوا حبل فريق من بطانتهم

على غواربهم، وكان ابن المقفع قد شهد هذا كله، ودرس أحوال الملوك والولاة عن كثب، وعلم مايسرهم ومايسوءهم، وما ينيل الحظوة والزلفى عندهم وما يبعدعنهم، وما يتألف به الناس وماشا كل ذلك من آداب صحبتهم، وقد ملأت نفسه رهبةُ الملوك والولاة، ونَخَبَ الرعب قلبه من بطشهم وقسوتهم.

فوضع في كتابه هذا خلاصة ما أرشده إليه البحث والاستقراء، وأضاف إليه ما علمه من أخلاق ملوك الفرس وولاتها من حب التبجيل والتعظيم، وألف حكمته هذه من مجموع الأمرين، ولذلك غالى في تعظيم السلطان أو الوالي، وبالغ في وجوب تعظيمه، وترويض النفس على موافقته في كل ما أراد، وتصديق قوله، وتزيين رأيه، وطاعته في المكروه، وما شا كل ذلك من النزعات الفارسية التي لا تتفق مع الشريعة الإسلامية التي لا طاعة لمخلوق فيها في معصية الخالق.

ولا يبعد أن يكون غرضه من وضع هذا الفصل في هذا الكتاب وذكر بعضه في كتابي الأدب الصغير وكليلة ودمنة أن يتقرب به من ذوي السلطان، ابتغاء لحظوة يرتجيها، أو اتقاء لشر يخافه.

وما جاء في هذا الفصل مما يتعلق بالحض على الأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، واجتناب ما سواهـا، فهو آيةٌ في روعة أسلوبه ونبالة مقصده. وقد استوحاه إلهامه من الحياة في عصره.

ثم انتقل إلى الكلام في الصديق، وعقد له بابًا خاصًا، ولكنه أدمج

فيه كثيراً مما لا يختص بالصديق ، وإنما يتعلق بالعدو ، وآداب المجالسة والمحادثة ، والإغرام بالنساء ، والزهد ، والاستشارة ، وغير ذلك . وإذا علمنا أن ابن المقفع بذل دمه لصديقه عبد الحميد – إن صح ذلك – وبذل ماله لصديقه عُمارة بن حمزة وغيره ، وأنه كان متديناً ، حسن المعاشرة ، لا نستكبر منه أن يأتي في هذا الباب بما تدوم به الأُلفة والصداقة ، وتحمد المعاشرة ، وتنتظم المحادثة ، وما شابه هذا من الخلال التي تطّبي القلوب ، وتُصبي النفوس ، وتفضي إلى الأُنس بالصديق ، والاحتراس من العدو ، وقد شرع في هذا الباب سنةً عادلةً إذا سلكها الإنسان استطاع أن يقطع مراحل الحياة في أمنٍ وطمأنينة ، ولا يفتح عليه ثلمة يقتحم منها أعداؤه عليه ، وقد جمعت المفترق من كل نوع إلى مثله ، توخياً لتقليل العبارة ، وتكثير الفائدة ، وهذه صفوة ما في كلامه :

الصديق

للصديق عند ابن المقفع منزلةٌ لا يساويه غيره فيها ، ولذلك يرى من الواجب على المرء أن يبذل لصديقه دمه وماله ، وألا ينتحل كلاماً أو رأياً سمعه منه ، وأن لا يخبره أنه عالم وهو جاهل ، وأن لا يصاحب أحداً إلا بمُروءة ، ولا يلتمس غلبة صاحبه ، ولا يجترئ على تقريعه وتبكيته وأن يقبل العفو منه ، ولا يعاتبه ولا يستبطئه ولا يستزيده ، وأن يعلمه أنه حَدِبٌ على صاحبه رؤوف به .

تخير الإخوان

ويرى ابن المقفع أن على المرء أن لا يؤاخي الناس على ماخيلت ، وإنما يتوخى لإخائه من إخوان الدين من كان فقيهاً ليس بمراء ولا حريص . ومن إخوان الدنيا من ليس بجاهلٍ ولا كذابٍ ولا شرير .

العدو

ويرى من الحكمة للتوقي من شر العدو أن يبذل المرء عدله لعدوه ، ولا يُعلمه أنه له عدو ، ويريه أنه لا يتخذه عدواً ، ويمسك عن شتمه وإحصاء معايبه ، ولا يتخذ اللعن والشتم سلاحاً عليه ، وأن يعرف أعداءه على منازلهم ، ويحذر البغتات ويأخذ لها أُهبتها ، ولا يستخفه ذكره ، ولا يذكره إلا حيث يضره .

ما يحترس منه

وإلى جانب ماسبق يرى أموراً جديرة بأن يتوقى منها ليأمن غائلتها فيجب أن يحترس من سورة الغضب والحَمِيَّة والحقد والجهل ويُعدُّ لكلٍّ منها عُدةً من الحلم والرَّوِيَّة ، ولا يحب أن يسمى داهية ، وأن يعلم أن لسانه أداةٌ مغلَّبة ، فإذا غلب عليه عقله فهو له ، وإذا غلب عليه غضبه وهواه وجهله فهو عليه .

آداب المجالسة

وقد اشتملت حكمته في هذا الباب على كثير من أدب الجليس والمجلس ومايتصل به ، وهي غايةٌ في السَّداد والنُّبل .

فعلى الجليس أن يحتفظ في مجلسه وكلامه من التطاول على الأصحاب، وأن لا يُنعم في الإقبال على من أقبل إليه بوده، وأن يكون عالماً كجاهل، وناطقاً كعَييّ ويحذر من تكذيب الجليس في حديثه، أو التسخيف لرأيه، وأن لا يعرّض بأحد، وإذا ذكرت خليقة امرئ فلا يدافع عنها فيتهم بها، ولا يَعُمّ أمةً أو جيلاً بشتم أو ذم، فربما تناول بعض جلسائه، ولا يذم اسماً من أسماء الرجال والنساء، فربما كان موافقاً لبعضهم في أسماء أهله وحرمه، الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع في التماس مثالبهم، فلا يغتر بذلك، ولا يجالس امرءاً بغير طريقته ومذهبه، فيضيع عقله، ويؤذي جليسه .

آداب المحادثة

وتناول كلامه طرفاً من أدب الحديث والمحادثة، يحفظ للمرء وقاره ويضمن له الفائدة، ولا يدع المحادثة تهيم في أودية الفوضى .

فعلى المرء أن لا يبتدئ حديثاً ثم يقطعه، وأن يخزن عقله وكلامه إلا عند إصابة الموضع، وأن يعرف العلماء منه أنه يحرص على السماع منهم، ولا يخلط الجِدّ بالهزل، ولا يكثر ادعاء العلم في كل ما يَعرِض له، ولا يشارك محدثاً في حديثه ولا يتعقبه، وإنما يحسن الاستماع له ويمهله حتى يقضي حديثه، ولا يغالبه عليه، ولا يسابقه إليه . وإذا غُلب على الكلام فلا يغلب على السكوت، ولا يخبر أخاه عن ذات نفسه بشيء إلا وهو محتجنٌ عنه بعض ذلك، ولا يخبر بشيء إلا وهو مصدقه، ولا يصدق إلا

ببرهان ، وإذا لم تقع الأحاديث من السامعين موقعها فليمسك عن نشرها، ولا يتطاول في الفصاحة على قوم ليسوا فصحاء .

أدب النفس

وابن المقفع يحب أن يكون الإنسان مثلاً أعلى في حركاته وسكناته ، ولا يتسنى له ذلك حتى يتحلى بصفات ويتخلى عن أضدادها، فمن أراد أن يملك القلوب ولا ينفرها ، ويكسب حب الناس ويأمن شرها ، فعليه أن يبذل للعامة بشره ، ويعلم أن انقباضه عن الناس يكسبه العداوة ، وتفرشه لهم يكسبه صديق السوء ، وأن يَلْبَس لهم لباسين : لباس انقباض للعامة ، ولباس انبساط للخاصة ، وأن يحبب إلى نفسه العلم ويعودها السخاء فإن الجبن مَقْتَلَة ، والحرص مَحْرَمة ، ولا يحسد غيره ويشعر قلبه الهيبة للأمور من غير أن يظهرها ، ويجمع في قلبه الافتقار للناس والاستغناء عنهم ، وأن يُنزل نفسه دون غايتها في كل مقام ومقال وأن يواسي أخاه في النائبات ، وإذا كانت له صنيعة فليلتمس إحياءها بإماتتها ، وليصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، ولا يكافئ السفه بالسفه ، ولا يعجبه إكرام من يكرمه إلا على دين أو مروءة ، ولا يفرح عند المحزون .. ويجعل لنفسه في كل شيء غاية يرجو القوة عليها ، وألا يكون عطاؤه خَوَراً ، وبيانه هذراً ، وعلمه جهلاً ، ولا يلتمس الراحة بالروغان ، ولا يغرم بالنساء ، وإذا بَدَهَهُ أمران فليخالف أقربهما إلى هواه ، وليعلم أن خفض الصوت وسكون الغضب ومشي

القصد من دواعي المودة ، ولا يفرط في شدة الحذر ، فإن بعضها عونٌ على الإنسان فيما يحذر .

الاستشارة

وليس معنى الاستشارة عنده إلزام المشير أو التزامه النجح فيما أشار، وإنما على المستشير أن لا يعطل عقله ويشايع المستشار .

فإن المستشار ليس بكفيل ، والرأي ليس بمضمون ، بل كله غرر ، فإذا أشار المستشار برأي فلم تكن عاقبته على ما يأمل المستشير فلا يلومنه ، وعلى المشير أن لا يمنّ على المستشير برأي ظهر صوابه ، وألاّ يلومه على تركه إن كان في تركه ضرر .

الزهد

قد يصدّ المرء عن الدنيا وزخرفها لأسباب مختلفة ، وليس كل إعراض عنها يكون زهداً في رأي ابن المقفع ، بل منه ما يكون ضجراً ، ومنه ما يكون زهداً حقيقة ، وهو الذي يحمد طلبه .

فإذا دعت النفس صاحبها إلى الزهادة في الدنيا على حال تعذرت عليه ، فذلك ضجرٌ واستخذاء ، وغضبٌ على الدنيا مما التوى عليه ، وإذا دعته إلى رفض الدنيا وهي مقبلة عليه فليسرع إجابتها .

هذا لُباب ما في هذا الباب ، ومنه ومما في الباب السابق تألفت حكمة ابن المقفع في هذا الكتاب ، واتضحت نظراته في السلطان والإخوان ،

وآداب الصحبة والمعاشرة والمحادثة ، والسير في معترك الحياة ، والزهادة في الدنيا .

وابن المقفع شهد كما قدمنا آخر عهد الدولة الأموية وأول عهد الدولة العباسية ، وأمعن في درس أحوال الناس ، واستقصى في البحث عما يسر الصديق والجليس وغيرهما وما يسوءهم ، ورأى فشوّ الأخلاق الذميمة ، من مثل الكبر ، والعجب ، والتنفج ، والغدر ، والكذب ، والتطاول على الجليس .

واستقرى أحوال الناس وما يضمرونه من الأحقاد ، والمكايد ، والأضغان ، والتغرير ، وما جانس ذلك .

ورأى ما يستفيده الإنسان من الصديق الصادق الوفي ، فحضّ على استفراغ المجهود في كل ما يدعو إلى بقاء الصداقة وسلامتها مما يكدر صفوها . وعلى التمسك بما تهوي إليه أفئدة الجليس والمعاشر ، وبين ما تدعو إليه سكرة السلطان والغضب ، وسورة الحميّة والجهالة ، والغرام بالنساء ، وما شاكل ذلك ، فاستقرى في هذا الباب ذكر ما رأى فعله مفيداً ، وتركه حميداً ، وأدمجه كله في باب الصديق ، ولعله اعتقد أن من فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه من شأنه أن يكون صديقاً أو يصير صديقاً .

وختم الكتاب بالإخبار عن صاحبٍ كان أعظم الناس في عينه ، وذكر أن رأس ما عظمه عنده خروجه عن سلطان بطنه وفرجه وجهالته ،

فلا يشتهي مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، ولا يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان صامتاً فإذا قال بذّ القائلين ، وكان يُرى مستضعفاً ، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشرك في مِراء ، ولا يُدلي بحجة ، حتى يجد قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً ، ولا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، ولا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً ، ولا يتبرم ، ولا يتسخط ، ولا يتشهى ، ولا ينتقم من الولي ، ولا يغفُل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه بحيلته وقوته ، ثم قال : فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع ، وبالله التوفيق .

ولعله أراد بما ذكره أن يبين المثل الأعلى في الأصحاب ، وهو من اتصف بما ذكره ، وقد علم أن هذا لا يكون فقال : أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع ، إذ ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ويقال : إن المأمون سمع قول أبي العتاهية :

عَذيري مِن الإنسانِ لا إنْ جفوتُهُ ... صفَا لي ولا إنْ صِرتُ طوْعَ يديْهِ
وإني لَمُشتاقٌ إلى ظلِّ صاحبٍ ... يرُوقُ ويَصفُو إنْ كدرْتُ عليْهِ

فقال : خذوا مني الخلافة وأعطوني هذا الصاحب ، وما نعلم ماذا يقول لو سمع بالصاحب الذي ذكره ابن المقفع وماذا كان يعطي به .

أسلوبه في الأدب الكبير

إذا أمعن الباحث النظر في كتابي الأدب الصغير والأدب الكبير لا يجد فرقاً بينهما من جهة الصناعة، فقد جرى في كليهما على طريقة الحكماء في التعليل وسوق الأدلة، فجاء أسلوبه فيهما أمتن وأشد أسراً من أسلوبه في كليلة ودمنة، إلا أن جمله في هذا أكثر ارتباطاً منها في الأدب الصغير، لأنه جمع ما فيه في بابين: باب السلطان، وباب الصديق، ولكنه أدخل في كل باب ما ليس منه، أو ما قد يمكن إدخاله فيه بضرب من التكلف والتأويل البعيد.

وفي هذا الكتاب أثر للثقافة الفارسية يتمثل في باب السلطان، وفيه أثر كبير للثقافة الإسلامية العربية تمثل فيما ذكره في باب السلطان والصديق، وما سرده من الأخلاق المحمودة عند المسلمين، وما يتعلق بأهل الدين والثواب والعقاب، فهو مغمور بالشعور الديني.

تشابه الكتابين وتشاركهما

بين الأدبين نسب محكم ورحم واشجة في الأسلوب، وطلاوة التأليف، ونبالة المقصد. وبينهما اشتراك في بعض الفصول، وقد يختلف اللفظ قليلاً فيهما، مثال ذلك قوله في الأدب الصغير:

وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين، ويلبس لهم لباسين مختلفين: فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ

في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ، ويلبَس لباس الأُنسة واللطف والبِذلة والمفاوضة ...

وهذا ذكره في الأدب الكبير في باب الصديق حيث قال :

البَس للناس لباسين ليس للعاقل بدٌّ منهما ، ولا عيش ولا مروءة إلا بهما : لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة ، فلا تُلْفَيَن إلا متحفظاً متشدداً ، متحرزاً مستعداً ، ولباس انبساط واستئناس تلبَسه للخاصة من الثقات ، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم ..

وقوله في الأَدب الصغير :

وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدرِ في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره .

وهذا ذكره في الأُدب الكبير أيضاً فقال :

إذا بَدَهَك أمران لا تدري أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فاحذره . وقوله في الأَدب الصغير :

إن للسلطان المقسط حقاً لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته ، فذو اللب حقيق أن يبذل لهم الطاعة ، ويكتم سرهم ، ويزين سيرتهم ويكون من أمره المواتاة لهم ، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه ، ويقدِّر الأمور على موافقتهم وإن كان ذلك له مخالفاً ، ولا تحمله مواتاة أحدٍ على الاستخفاف بشيءٍ من أمورهم ، والانتقاص لشيءٍ من حقهم ، ولا يتثاقل عن شيءٍ من طاعتهم .

ولا يدخل عليهم المؤونة ، ولا يستثقل ما حملوه ، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه ، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه .

وقال في الأدب الكبير :

لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على ميلهم دون ميلك ، . . وتخفي ما أطلعوك عليه ، وعلى الاجتهاد في رضاهم . . والتزيين لرأيهم ، وقلة الاستقباح لما فعلوا ، وحسن الستر لمساويهم ، والتخفيف عنهم لمؤونتك .

إنهم إن سخطوا عليك أهلكوك ، وإن رضوا عنك تكلفت من رضاهم ما لا تطيق .

اشتراك كليلة ودمنة والأدب الصغير

استمد ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من بعض العناصر الهندية والعناصر الإسلامية كما أسلفناه ذكره ، واستمد كتابه الأدب الصغير من أدبه الكبير كما قدمنا . وكذلك استمد كتابه الأدب الصغير من كتاب كليلة ودمنة ونقل إليه بعض الفصول بتصرف قليل في اللفظ . من ذلك قوله في باب الأسد من كليلة ودمنة : فإن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوي الرأي وهم الوزراء والأعوان ، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة ، ولا مودة ولا نصيحة إلا لذوي الرأي والعفاف . وأعمال السلطان كثيرة ، والذين يحتاج إليهم من العمال

والأعوان كثيرون ، ومن يجمع منهم ماذكرت من النصيحة والعفاف قليل ، فيجب عليه أن يَختبر وزراءه وذوي رأيه ، ويرى ما عند كل واحد منهم من الرأي والتدبير وما ينطوي عليه ، فإذا استقر ذلك عنده جعل لكل واحد منهم مايصلح أن يفكر فيه ويدبره ، وأن لا يوجه إلى الأعمال إلا من يثق بدينه وأمانته وعفته ، ثم عليه بعد ذلك إنفاذ من يثق به للكشف عن أعمالهم ، وتفقد أمورهم بالسر الخفي ، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء ، فإن لم يفعل ذلك تهاون المحسن ، واجترأ المسيء ، وفي عرض ذلك تهلك الرعية ، ويفسد الملك .

وقد قال في الأدب الصغير :

لا يستطاع السلطان إلا بالوزراء والأعوان ، ولا تنفع الوزراء إلا بالمودة والنصيحة ، ولا المودة إلا مع الرأي والعفاف ، وأعمال السلطان كثيرة ، وقلما تستجمع الخصال المحمودة عند أحد ، وإنما الوجه في ذلك أن يكون صاحب السلطان عالمًا بأمور من يريد الاستعانة به ، وما عند كل رجل من الرأي والغَناء وما فيه من العيوب ، فإذا استقر ذلك عنده وجه لكل عمل من قد عرف أن عنده من الرأي والنجدة والأمانة ما يحتاج إليه فيه .

ثم على الملوك بعد ذلك تعهد عمالهم وتفقد أمورهم ، حتى لا يخفى إحسان محسن ، ولا إساءة مسيء ، ثم عليهم بعد ذلك أن لا يتركوا محسنًا بغير جزاء ، ولا يقروا مسيئًا أو عاجزًا على الإساءة والعجز ، فإنهم إن

تركوا ذلك تهاون المحسن ، واجترأ المسيء ، وفسد الأمر ، وضاع العمل .

ومن ذلك قوله في كليلة ودمنة :

ويقال في الأمثال : قارب عدوك بعض المقاربة لتنال حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك ، ويضعف جندك ، وتذل نفسك ، ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس ، إذا أملتها قليلاً زاد ظلها ، وإذا جاوزت بها الحد في إمالتكها نقص الظل .

وهذه أوردها في الأدب الصغير بتصرف قليل .

وقوله في باب البوم والغربان :

فإن الحازم لا يأمن عدوه على كل حال ، فإن كان بعيداً لم يأمن سطوته ، وإن كان مكثباً لم يأمن وثبته ، وإن كان وحيداً لم يأمن مكره .

وقوله في الأدب الصغير :

الحازم لا يأمن عدوه على كل حال ، إن كان بعيداً لم يأمن من معاودته ، وفي نسخة مغاورته ، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته ، وإن رآه وحيداً لم يأمن مكره .

وقوله في باب البوم والغربان أيضاً :

وكان يقال : لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ، ولا الخَبُّ في حسن الصديق ، ولا السيء الآداب في الشرف ، ولا الشحيح في البر ، ولا الحريص في قلة الذنوب ، ولا الملك المحتال المتهاون بالأمور الضعيف الوزراء في ثبات ملكه .

وقوله في الأدب الصغير :

لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ، ولا الخَبُّ في كثرة الصديق ، ولا السيئ الأدب في الشرف ، ولا الشحيح في المحمدة ، ولا الحريص في الإخوان ، ولا الملك المُعْجَب بثبات الملك .

وقوله في هذا الباب :

ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشدّ استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة ... ويقال : أربعة لا يُستقلّ قليلها : النار ، والمرض ، والعدو ، والدّين .

وقوله في الأدب الصغير :

صرعة اللين أشد استئصالاً من صرعة المكابرة ، أربعة أشياء لا يستقل منها قليل : النار ، والمرض ، والعدو ، والدّين .

وقوله في باب الحمامة المطوقة :

فقلت في نفسي : ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمراً قعد به العُدْم عما يريده ، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء ، لا يمر إلى نهر ، ولا يجري إلى مكان ، إلا أن يفسد وينشف ولا ينتفع به ، ووجدت من لا إخوان له لا أهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة له ، لأن من نزل به الفقر لا يجد بُدّاً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ومقت نفسه ، ومن مقت نفسه كثر حزنه ،

ومن كثر حزنه قل عقله وارتبك في أمره ، ومن قل عقله كان أكثر قوله وعمله عليه لا له ، ومن كان كذلك فأجدر أن يكون أنكد الناس حظاً في الدنيا والآخرة .

وهذه أوردها في الأدب الصغير بقليل من التصرف .

وقوله : في باب الحمامة المطوقة أيضاً :

ووجدت الفقر رأس كل بلاء ، وجالباً إلى صاحبه كل مقت ، ومَعدِنَ النميمة ، ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمناً ، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعاً ، وليس من خَلَّةٍ هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذمٌ ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان جواداً سمي مبذراً ، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمي بليداً ، وإن كان صموتاً سمي عيياً ، وإن كان لسِناً سمي مهذاراً ..

وهذه أيضاً في الأدب الصغير .

وقوله في الباب أيضاً :

ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشَّرَه ، لأنهما لا يزالان يدخلان صاحبهما من شيء إلى شيء ، والأشياء لا تَنْفَد ولا تنتهي ، ولا يزال صاحب الدنيا في بليةٍ وتعبٍ ونصب .

ثم قال : ووجدت العلماء قد قالوا : لا عقل كالتدبير ، ولا ورع ككف الأذى ، ولا حسب كحسن الخلق ، ولا غنى كالرضى ،

وأحق ماصبرَّ الإنسان على الشيء نفسه ، وأفضل البر الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال ، ورأس العقل معرفة مايكون مما لايكون .

وقد أورد في الأدب الصغير هذه العبارة نفسها .

وقال في هذا الباب :

فإنه لاشيء من سرور الدنيا يَعدل صحبة الإخوان ، ولاغم فيها يَعدل البعد عنهم .

وهي في الأدب الصغير .

وقال في هذا الباب أيضاً :

وقد قيل في أشياء ليس لهاثبات ولابقاء : ظل الغمامة في الصيف ، وخُلَّة الأشرار ، وعشق النساء ، والنبأ الكاذب ، والمال الكثير .

وهذه أوردها في الأدب الصغير بلا زيادة ولانقص .

وقال في هذا الباب أيضاً :

ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء ، الذي لايزال في تصرف وتقلب ، ولا يدوم له شيء ، ولايلبث معه أمر ، كما لايدوم للطالع من النجوم طلوع ، ولا للآفل منها أفول ، لكن لايزال الطالع منها آفلاً ، والآفل طالعاً .

وقال في الأدب الصغير :

لأن هذا الإنسان موكل به البلاء ، فلايزال في تصرف وتقلب ، لايدوم له شيء ولا يثبت معه ، كما لايدوم لطالع النجوم طلوعه ، ولا

لا آفلها أفوله ، ولكنها في تقلب وتعاقب ، فلا يزال الطالع يكون آفلاً والآفل طالعاً .

إلى غير ذلك من الفصول التي لم تختلف إلا قليلاً .

كليلة ودمنة والأدب الكبير

قد علمنا أن كلاً من الأدبين استمد من صاحبه فصولاً قدمنا ذكر بعضها ، أما كليلة ودمنة فإن المشابهة بينه وبين الأدب الكبير في بعض الفصول قليلة خفية .

منها قوله في باب عرض الكتاب :

وينبغي لمن طلب أمراً أن يكون له فيه غاية ونهاية يعتمد عليها ويقف عندها ، ولا يتمادى في الطلب ، فإنه يقال : من سار إلى غير غاية فيوشك أن تنقطع به مطيته .

وقد قال في الأدب الكبير :

اجعل لنفسك في كل شيء غاية ترجو القوة والتمام عليها ، واعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التقصير .

والفصل الذي ختم به الأدب الكبير أعني قوله : إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه الخ . .

أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٥٥ عن الحسن بن علي . وبينهما تشابه قوي في المادة التي اشتركا فيها ، واختلاف قليل

في اللفظ ، وفي كلٍّ منهما بعض زيادة عن الآخر ، وهذه رواية ابن قتيبة عن أبي الربيع عمرو بن سليمان ، قال : قال الحسن بن علي :

ألا أخبركم عن صديق كان لي من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظم به في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي مالا يجد[1] ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يمد يداً إلا على ثقة لمنفعة .

فلعل ابن المقفع أخذ كلمة الحسن فزاد فيها ونقص . والله أعلم .



---

(١) لعل الأصل : مالا يجد .

الدرة اليتيمة

قال الأصمعي : صنف ابن المقفع كثيراً من المصنفات الحسان، منها الدرة اليتيمة التي لم يصنف في فنها مثلها . وقالوا إنه عارض بها القرآن .

وذكر ابن النديم في الفهرست في جملة مانقل ابن المقفع من كتب الفرس كتاب اليتيمة في الرسائل، وعدّها في موضع آخر من الكتب المجمع على جودتها ، وغيره يعد اليتيمة من تأليف ابن المقفع كما سيأتي :

قال المحبي فيما يعوّل عليه، في المضاف والمضاف إليه : يتيمة ابن المقفع يضرب بها المثل لبلاغتها وبراعة منشئها ، وهي رسالة نهاية في الحسن ، تشتمل على مجالس من الأدب .

وقد ذكرها أبو تمام وأجراها مثلاً في قوله للحسن بن وهب :

فَكَأَنَّ قُسًّا في عُكاظِ يَخْطُبُ ... وَكَأَنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ تَنْدُبُ

وَكُثَيِّرَ عَزَّةَ يَوْمَ بَيْنٍ يَنْسِبُ ... وَٱبْنَ ٱلْمُقَفَّعِ في ٱلْيَتِيمَةِ يُسْهِبُ

وكلام الباقلاني ، يشعر بأن الدرة اليتيمة كتابان لا كتاب واحد ، قال في إعجاز القرآن :

وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة، وهما كتابان أحدهما يتضمن حكماً منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى .

والآخر في شيء من الديانات، وقد تهوّس فيه بما لا يخفى على متأمل،

وكتابه الذي بيناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة، فأي صنع له في ذلك وأي فضيلة حازها فيما جاء به ؟

وقد توهم فريق من الأدباء فأطلق اسم اليتيمة أو الدرة اليتيمة على الأدب الكبير، والصواب أنهما كتابان مختلفان، والدليل على هذا :

١ - أن صاحب تاج العروس ذكر أن اسم ابن المقفع داذبة بن داذ جشنش، وأن هذا الاسم هو الذي ذكره في كتابه الموسوم باليتيمة، وليس في الأدب الكبير هذا الاسم ولا غيره .

٢ - أن ابن قتيبة أورد هذين الاسمين في مواضع مختلفة من كتابه عيون الأخبار، فقال مرة : قرأت في اليتيمة، وقال غيرها : وفي الأدب، والذي نقله عن اليتيمة غير موجود في الأدب الكبير الذي بين أيدينا، مثال ذلك قوله ١ : ٣ قرأت في اليتيمة : قليل مضار السلطان في جنب منافعه مثل الغيث، الذي هو سقيا الله، وبركات السماء، وحياة الأرض ومن عليها، وسيأتي في الأمثلة .

٣ - أن ابن النديم ذكر في كتبه الأدبين، وكتاب اليتيمة في الرسائل .

٤ - أن ابن طيفور (1) أورد في كتابه المنظوم والمنثور فصولاً من اليتيمة

---

(١) هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ولد ببغداد سنة ٢٠٤ وتوفي سنة ٢٨٠ كان عامياً ثم نبغ في التأليف، وقد ذكر له ابن النديم في الفهرست ص ٢٠٩ خمسين مؤلفاً منها المنظوم والمنثور أربعة عشر جزءا .

ليست في الأدب الكبير، وقد قال في رسائل البلغاء ص ١١٥ قال أبو الفضل أحمد بن طيفور: ومن الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه، وهي من أركان البلاغة، ومنها استقى البلغاء، لأنها نهاية في المختار من الكلام، وحسن التأليف والنظام — الرسالة التي لابن المقفع وهي اليتيمة، فإن الناس جميعاً مجمعون أنه لم يعبر أحدٌ عن مثلها، ولا تقدمها من الكلام شيء. ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرواة، فمن فصولها قوله في صدرها:

وقد أصبح الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولين منقوصين، فقائلهم باغ، وسامعهم عيّاب، وسائلهم متعنّت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل، وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف.. وأول هذا الفصل مذكور في كتاب الأدب الصغير مع اختلاف يسير، ولكن بقيته ليست في الأدبين.

وكلامه فيه يشبه كلام الخطباء، لأنه يقول. وقد ابتليت أن أكون قائلاً وأن تكونوا سامعين. وفيه ما يشبه الجواب عن سؤال وذلك حيث يقول: وقد وافقتم من مسارعة فيما سألتموني.. طمعاً في أن ينفع الله بذلك من يشاء..

أما سؤالكم عن الزمان فإن الزمان الناس، والناس رجلان: والٍ ومولًى عليه وفيه تقسيم الأزمنة إلى أربعة على اختلاف حالات الناس:

فخيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية . ويبين ما يكون فيه صلاح الراعي والرعية .

ثم يليه الزمان الذي يصلح منه الإمام نفسه ويفسد الناس ،

والزمان الثالث صلاح الناس وفساد الوالي ..

وشر الزمان ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية ..

ويشعر كلامه بعد ذلك بأنه يمدح الزمان الذي هو فيه ، ويرجو فيه الصلاح لصلاح الإمام الذي لا يرى عليه ذنباً إذا لم يكن زمنه خير الأزمنة ، والذي عده نعمة من الله وذكر ما تيسر له مما يحمد منه فقد قال :

فقولي في هذا الزمان إنه إلا يكن خير الأزمان فليس على واليكم ذنب ... غير أنا بحمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح بصلاح إمامنا ، ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا ، قد رأينا حظه من الله .. في التثبت والعصمة ، فلم يبرح الله يزيده خيراً ، ويزيد به رعيته مذ ولاه .

والذي يحمد من أمير المؤمنين أنا ذاكر ما تيسر منه .. وقلما نلقى من أهل العقل والمعاينة منكراً لنعمة الله بأمير المؤمنين .

فتفهموا بعض ما أنا ذاكر لكم وتدبروه بالحق والعدل ...

فتفكروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين في مَعدِنه وسيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة ...

فمن كان سائلاً عن حق أمير المؤمنين في مَعدِنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة وأكرمها نسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبي الرحمة

وخاتم النبيين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاماً محموداً .

وليس ببعيد أن يكون أراد بهذه الكلمة – خطبة كانت أم جواباً أم غيرهما – أن يتقرب من الخليفة ، وهو السفاح أو المنصور ، لأنه أطنب في مدحه ومدح زمانه ، وكلامه في غيرها غير كلامه فيها .

ثم بعد ذلك لانعلم إن كانت من اليتيمة أم يتيمة غيرها ، لأننا لم نوفق إلى الاطلاع على اليتيمة ، وكيف كان الأمر فإنه استمد فيها من الأدب الصغير أو استمد فيه منها .

الخلاصة

اتفقت كلمة العلماء على أن لابن المقفع كتاباً أو رسالة اسمها اليتيمة ، واختلفت فيه على الوجه السابق . واختلفت في الاسم أيضاً كما اختلفت في المسمى ، فقد سماها أبو تمام وابن طيفور وابن قتيبة وابن حجر اليتيمة .

وسماها ابن النديم اليتيمة في الرسائل .

وسماها القفطي وابن أبي أصيبعة اليتيمة في طاعة السلطان .

وسماها الباقلاني الدرة اليتيمة .

رسالة الصحابة

من جملة رسائل ابن المقفع وآثاره الخالدة ، رسالته المعروفة برسالة الصحابة ، ويريد بهم صحابة الخلفاء وأولي الأمر ، وهم خُلصانهم وبِطانتهم والمقربون منهم .

وهذه الرسالة تشتمل على كثير من الأمور المتعلقة بالدولة ورعيتها ، وانتقاد الخِطط المتبعة في الحكم والجباية والقضاء ، وعدم اعتبار الكفاءة في قيادة الجند ، وماشا كل ذلك .

ويدل كلامه فيها على أنه كتبها للمنصور ، لأنه ذكر فيها أمير المؤمنين وذكر فيها الوزارة والكتاب قبل خلافته ، وذكر فيها أبا العباس رحمة الله عليه .

ومن المحقق أن الوزارة إنما حدثت في عهد السفاح ، وأن ابن المقفع قتل في عهد المنصور .

وأول ما ابتدأ به هذه الرسالة الدعاء لأمير المؤمنين .

ثم عقبه بمدحه بأنه يجمع مع علمه المسألة والاستماع ، ويستوثق لنفسه بالحجة ، وتزلف له خلالَ ذلك بذم ولاة الشر ، بأنهم كانوا يجمعون مع جهلهم العُجْب والاستغناء ، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع .

وذكر أنه عرف من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على أن يذكره ، أو يخبره بما لم يبلغه ، وأنه يقبل كلا الأمرين .

وأنه لم يدرك هو وآباؤه الناس إلا وهم يرون خلالاً يقطع الرأي ويمسك بالأفواه ، وبين الحالة التي كانت قبل المنصور ، فالوالي لا يهمه الإصلاح ، وإن أهمه فليس لديه رأي يثق به ، وإن كان له رأي فليس له معه صول أو حزم .

والأعوان ليسوا بأعوان على الخير ، ولا سبيل إلى اقتلاعهم لمكانهم من الأمر ، وللخوف من فسادهم إن هيجوا أو انتقص ما في أيديهم ، والرعية لا تنصف نفسها ، فإن أخذت بالشدة حميت ، وإن أخذت باللين طغت .

ثم مدح أمير المؤمنين بأن الله طهره من هذه الخلائق ، وآتاه ما آتاه في نيته ومقدرته وعزمه ، وصنع له في اقتلاع من كان يشركه في أمره على غير طريقته ورأيه .

ولعله يريد بهؤلاء أبا مسلم وأمثاله ، ثم التمس للخليفة وجوهاً حسنة في لينه وشدته ، وأطنب في الثناء عليه ، ووسع آفاق الرجاء منه .

ثم شرع في بيان ما يراه من وجوه الإصلاح ، فرأى أن يذكر أمير المؤمنين بأمور سبعة : جند خراسان ، وأهل المصرين البصرة والكوفة والعراق ، وأهل الشام ، وأصحابه ، وبني عليّ والعباس ، وأمر الأرض والخراج ، وجزيرة العرب .

١ - جند خراسان

اختص هذا الجند بالقول وقدم الكلام فيه على ما سواه ، وعُني به أكثر من غيره لأنه فارسي وابن المقفع فارسي . ولأن الجند سياج الدولة وجُنّتها ، والذائد عن حوضها ، وهذا الجند أحد جناحي الدولة العباسية .

وخلاصة قوله فيه أنه مدح هذا الجند بأنه لم يدرك مثلهم في الإسلام ، وفيهم مَنَعَة ، وهم أهل بصر بالطاعة وفضل وعفاف وذل للولاة .. وذلك ليس عند غيرهم . وأن فيهم حاجةً إلى الإصلاح بتقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم ، ثم استطرد إلى ذكر ما يحملهم عليه بعض القواد من الطاعة للخليفة في المعصية والطاعة ، وقولهم لهم إن أمير المؤمنين لو أمر الجبال أن تسير سارت ، ولو أمر أن تستدير القبلة بالصلاة فعل ذلك . وقول فريق آخر إن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهلٌ أن يعصى ، وإن أمرنا بطاعته فهو أهل أن يطاع . وقول فريق آخر . نطيع الأئمة في كل أمورنا ، ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته .

وقد انتقد ابن المقفع الأقوال الثلاثة ، فقال في الأول : قلما يرد في سمع سامع إلاّ أحدث فيه شكاً وريبة ، وفي الثاني : إنه يجعل الإمام ومن سواه سواء بالنسبة إلى الطاعة ، وفي الثالث : إن حمله على إطلاقه وعمومه يفضي إلى استحلال المعصية .

ويرى الصواب في مراعاة الحديث الشريف : لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ ٱلْخَالِقِ ، ويحمل ذلك على المعصية المتعلقة بالفرائض والحدود

التي لم يجعل الله لأحدٍ عليها سلطاناً ، وأن الإمام يطاع فيما لا يطاع فيه غيره من الأمور التي ليس لأحدٍ فيها حقٌ غيره ، كالرأي والتدبير والغزو ، والجمع والقسم ، والاستعمال والترك ، وإمضاء الحدود والأحكام على الكتاب والسنة ، ومحاربة العدو .. ونحوها . وقد أطال في الاستدلال على هذا .

ويرى من الإصلاح أن يكتب لهم أمير المؤمنين أماناً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يقولوا فيه ، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دَهماءهم .

وأن لا يولي أحداً من الجند شيئاً من الخراج ، لأن ذلك مفسدة للمقاتلة ، وأن يراعي الكفاءة في تعيين القواد ، فإن في الجند من هو أفضل من بعض قادتهم .

وأن يتعهد أدب الجند في تعليم الكتاب والتفقه والسنة ، والأمانة والمباينة لأهل الهوى ، وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زِيّ المترَفين مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين نفسه .

وأن يوقت لهم وقتاً لأرزاقهم في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له ، وأن يعلموا ذلك حتى ينقطع الاستبطاء والشكوى .

وأن يجعل بعض الأرزاق طعاماً وبعضها عَلَفاً . وأن يتفقد أحوال الجند ويستقصي أخبارهم وباطن أمرهم ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات ، وأن يحتقر النفقة في ذلك .

٢ — أهل المصرين والعراق

ثم انتقل إلى تذكر أمير المؤمنين بأمر أهل المصرين الكوفة والبصرة، فذكر أنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومُعينيه، مع اختلاطهم بأهل خراسان، وأنهم منهم وهامتهم .

وأن في أهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشكّ أنه ليس في جميع مَن سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه، وأن يكتفي بهم في جميع ما يلتمس له أهل الطبقة من الناس .

وأن أهل العراق أزرى بهم وُلاتهم فيما مضى، فقد كانوا أشرار الولاة، وكان أعوانهم من أمصارهم أشراراً مثلهم، فحُمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك ونعاه عليهم أعداؤهم أهل الشام، فلما جاءت الدولة العباسية تعلق الوزراء والعمال بالأقرب ممن دنا إليهم، أو ممن وجدوه على شيء من الأمر، فوقع رجال مواقعَ شانت جميع أهل العراق، وكان من رأي أهل الفضل منهم أنهم يُقصدون ويلتمسون، فجاء الأمر على غير ما يتوقعون، فكفوا عن الوالي وباعدوا منه، وكرهوا أن يزاحموا غير نظرائهم، ولو وسد إليهم الأمر لكان فيهم من الغَناء والبلاء الحسن ما يظهر فضلهم على من سواهم .

ثم تصدى إلى ذكر القضاء وما فيه من التناقض والفوضى فيهما وفي غيرهما، فذكر أن الدم والفرج يُستحلان بالحِيرة ويحرمان بالكوفة، بل يكون مثل هذا الاختلاف في البلد الواحد، فيستحل في ناحية منه

ما يحرم في ناحية أخرى ، وينفذ مثلُ ذلك على المسلمين قضاةٌ جائزٌ أمرهم وحكمهم .

منهم من يدعي لزوم السنة ، فيجعل ما ليس له سنةٌ سنةً ، ويسفك الدم بغير حجة تدل على أنه سنة ، فإن سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُريق فيه دمٌ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو أئمةِ الهدى من بعده ، فإذا قيل له : أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمها ؟ قال : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير غيره .

ومنهم من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام عن رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد ، وهو مقرٌ أنه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة .

ويرى ابن المقفع من وجوه الإصلاح لحسم هذا التناقض وإزالة ما في القضاء من الفوضى أن يأمر أمير المؤمنين بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قومٍ من سنة أو قياس ، ثم ينظر فيه ويمضي رأيه في كل قضية ، وينهى عن القضاء بخلافه ، ويكتب بذلك كتاباً جامعاً عزماً ، فتصبح هذه الأحكام المختلطة الصوابِ بالخطإ حكماً واحداً برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر إلى آخر الدهر .

ويرى أن اختلاف الأحكام إما مأثورٌ عن السلف غير مجمعٍ عليه ، فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق ، وأشبهِ الأمرين بالعدل ،

وإما رأيٌ أجراه أهله على القياس ، فاختلف وانتشر ما يغلط في أصل المقايسة ، وأن القياس دليلٌ يستدل به على المحاسن ، فإذا قاد إلى حسن أخذ به ، وإذا قاد إلى قبيح تُرك .

٣ – اهل الشام

ثم انتقل إلى تذكير أمير المؤمنين بأهل الشام ، لأنهم أشد الناس مؤنة وأخوفهم عداوة ، فرأى أن لا يؤاخذهم بالعداوة ، وأن يختص منهم خاصة ، فإنهم لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم ، وأن يقتصر بهم على فيئهم ، ويجعل ديوان مقاتلتهم ديوانهم . ويأخذ منهم أهل القوة والغَناء والعفة في الطاعة ، ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة ، ويأمر لكل جند من أجناد أهل الشام بعدة من العيال يقترعون عليها ، ويسوي بينهم فيما لم يكونوا فيه أسوة .

وما يتخوف المتخوفون من نَزَواتهم فإنهم إن أخذوا بالحق كانوا خُلَقاء ألا يكون منهم ذلك ، فإن كان فإنه على مثل اليقين أن الدائرة لأمير المؤمنين عليهم آخر الدهر .

٤ – صحابة الخليفة

ثم انتقل إلى تذكير الخليفة بأمر أصحابه ، الذين هم بهاء فِنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، والأعوان على رأيه . فذكر أن الوزراء والكتاب الذين ولوا أمر الأصحاب قبل عهد المنصور عملوا فيه عملاً قبيحاً ، مفسداً للحسب والأدب والسياسة ، داعياً

للأشرار ، طارداً للأخيار ، حتى صارت صحبة الخليط أمراً سخيفاً ، فطمع فيها الأوغاد ، وتزهد فيها من كان يرغب فيما دونها ، وذكر أنه كان في ناسٍ من صُلَحاء البصرة ووجوههم ، فلما قدم أبو العباس السفاح أبوا أن يأتوه ، واعتذروا بضياع المكتب والدعوة والمدخل ، يقولون هذه منزلةٌ كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها ، عند من هو أصغر ولاتنا اليوم .

وأنه سمع من الناس من يقول: ما رأينا أعجوبةً قط أعجب من هذه الصحابة ، ممن لا ينتهي الى أدب ولا حسب ، وهو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور . غَبَرَ عامةَ دهره صانعاً يعمل بيده ، ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غَناء ، ثم هو مع ذلك يؤذَن له على الخليفة قبل قرابة الخليفة وكثيرٍ من أبناء المهاجرين والأنصار وأهل بيوتات العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضِعف مما يجرى على كثيرٍ من بني هاشم وغيرهم . وهو لم يضعه في هذا الموضع رعاية رحم ولا فقه دين ولا بلاء في مجاهدة وليس بفارسٍ ولا خطيب ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به .

وفي ذلك مَظْلِمةٌ عظيمةٌ خصت قريشاً وعمت كثيراً من الناس ، وأدخلت على الأحساب والمروءات محنةً وضياعاً ، لأن في إذن الخليفة والمجلس عنده وإجراء الرزق على صحابته وتفضيل بعضهم — حكماً على الناس في أنسابهم وأخطارهم وبلائهم ، وقضاءً عاماً على الماضين من أهل

السوابق . وهذا يشين السلطان ، وليس في رفعه مؤنة ولا شغب .

ويرى أن لصحابة الخليفة مزية وفضلاً ، فيجب أن لا ينالها إلا رجل بدر بخصلة ، أو له عند الخليفة قرابة أو بلاء ، أو من يؤهله شرفه ورأيه وعمله لمجلس الخليفة ومشورته ، أو من يجمع بين النجدة والعفاف والحسب ، أو فقيه مصلح ، أو شريف لا يفسد نفسه . أما من يتوسل بالشفاعة فإنه يكتفي له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأياً ، ولا يزيل أمراً عن مرتبته .

وأن تكون الصحابة على منازلها ومداخلها ، لا يكون للكاتب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ، ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخيره .

٥ — العلويون والعباسيون

ثم انتقل إلى تذكير الخليفة بأمر فتيان أهل بيته وبني أبيه وبني علي وبني العباس ، وذكر أن فيهم رجالاً لو متعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى ، ولم يتجاوز في هذا الموضوع هذا المقدار .

٦ — الأرض والخراج

وانتقل بعد هذا إلى أمر الأرض والخراج وبين ما فيه من الفوضى والإرهاق ، فذكر أن سيرة العمال إحدى اثنتين : إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد ، وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد ، وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ، ويترك من لم يزرع .

وأن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم ، وليس

من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مراراً ، فخفيت وظائف بعضها ، وبقيت وظائف بعض .

ثم بين ما يراه من الإصلاح في هذا الأمر ، وذلك أن يوظف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة ، وتدوّن الدواوين بها ، وتثبت الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها . وقد صرح بأن هذا الرأي مؤونته شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر . وذكر بعد هذا ما أخذ به أمير المؤمنين من تخير العمال وتفقدهم ، والاستعتاب لهم والاستبدال بهم ، وأن ذلك لم يره من أحد قبله .

٧ - جزيرة العرب

ثم انتقل إلى تذكير الخليفة بجزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها . وبين ما يراه من الإصلاح لها ، بأن يختار الخليفة لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم ، لأنه يعلم ما بهم من الاستخراج والفساد ، ويعلم حاجتهم إلى تقويم آدابهم وطريقتهم ، وذكر أن أهل كل مصر وجند وثغر فقراء إلى مؤدبين ومقومين من أهل الفقه والسنة والنصيحة ، يبصرون الخطأ ، ويمنعون عن البدع ، ويتفقدون أمور العامة ويصلحونها ، وأن في كل قوم خواصّ رجال ، عندهم معونة على ذلك إذا صنعوا له وأعينوا على رأيهم ، وخطر ذلك وفائدته في أمرين: أحدهما رجوع أهل الفساد إلى الصلاح وأهل الفرقة إلى الألفة .

والثاني أنه لا يتحرك متحرك إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا يهمس هامسٌ إلا وأذن شفيقة تصيخ نحوه ، وإذا كان ذلك بطل عمل المفسدين ، وكانت عاقبة الأمر مأمونة .

ثم ختم رسالته بجملة فيها جماع الأمر وقوامه ، وصلاح الملك وانتظامه ، فذكر أن العامة لا تصلح إلا بالخاصة ، والخاصة لا تصلح إلا بإمامها ، وحاجتها إليه أعظم من حاجة العامة إليها . ثم قفّى على آثار ذلك بذكر ما للإمام من الأثر في صلاح الخاصة ، فبالإمام يجمع الله أمرهم وكلمتهم ، ويبين عند العامة منزلتهم ، ويجعل لهم الحجة على من نكب عن سبيل حقهم .

وذكر بعده أنه لما رأى هذه الأمور ينتظم بعضها ببعض ، وعرف من أمير المؤمنين ما بمثله جمع الله خواص المسلمين على الرغبة في المعاونة والسعي في صلاح عامتهم — طمع في ذلك للخاصة والعامة ، ورجا أن لا يعمل بهذا أحد إلا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه ، ثم دعا الله أن يعزم لأمير المؤمنين على المراشد ويحصنه بالحفظ والثبات . والسلام .

هذه خلاصة ما في رسالة الصحابة ، مما رآه من الخلل في الأعمال ، وانتقده من سير العمال ، وارتآه من الوسائل المفيدة في تقويم الأود ، وإصلاح ما فسد .

ومن تأمل كلامه في صحابة الخليفة يتضح له أن ابن المقفع كان يطمح إليها ، ويرى أنه أهل لها ، ولكنه حِيلَ بينه وبينها ،

ولذلك أبي أن يزور السفاح فيمن أبى ، ونقم على الدولة فيمن نقم .

ومن الإنصاف والحق أن يقال : إن هذه الأمور التي نعاها على العمال وبين مضارّها، ووجوه الإصلاح التي ارتآها وأوضح منافعها — جديرةٌ بالتقدير والاعتبار ، ولو احتذى الخلفاء والعمال على مثال ما ذكر لزالت الفوضى ، وقلّت الشكوى من كثير من الأعمال والعمال .

وهي تدل على درسٍ عميق لخطط الحكومة ونُظُمها الاجتماعية ، واستقراء واسع لأحوال الجند والعمال والبطانة، وفكر قويّ ثاقب، وبصر نافذٍ فيما يضرّ وينفع الحكومة ، وخبرةٍ بمعالجة الأدواء التي ابتلي بها الجند والقضاء والخراج وغيرها ، ومعرفة بما تتألف به القلوب وتُستلّ السخائم .

أما أسلوبه في هذه الرسالة فقوي الأَسْر ، متين التأليف ، وفيه جمل لا تشابه ديباجة ابن المقفع في بقية رسائله . ولعل سبب ذلك ما اشتملت عليه من التحريف ونقص بعض الجمل ونحو ذلك ، مما غمرها بالغموض واللَّبس في مواطن متعددة . وهي مفعمة بالشعور الإسلامي ، مشتملة على كثيرٍ من ألفاظ القرآن والحديث والمواضعات الإسلامية ، فهي عربية بحتة في ألفاظها وجملها ومعانيها وأغراضها ومأخذها .

وهي تمثل لنا ما كان عليه العمال والقواد ، وما كانت تجري عليه الدولة في فصل الخصومات والجباية وغيرهما ، وما وصل إليه العقل في ذلك العهد ، وما كان يتمتع به العلماء والأدباء من حرية القول والرأي ، حتى استطاع مثل ابن المقفع أن يجابه مثل المنصور بمثل ما تقدم ، وأن يفضي إليه بشُقوره .

بقية آثاره

ومن آثار ابن المقفع **الرسالة الهاشمية** الآتي ذكرها في كلام الجاحظ، والظاهر أنها في علم الكلام، وقد انتقدها الجاحظ. ولا أعلم هل هي إحدى اليتيمتين التي ذكر الباقلاني أنها تتعلق بالديانات أم غيرها، وليس فيما اطلعت عليه من رسائله ما يتعلق بالكلام أو الديانات.

* * *

ومنها **رسالة في الأدب والسياسة**، ذكرها القفطي وابن أبي أصيبعة، وهي غير اليتيمة، ولا أعلم إن كانت هي أحد الأدبين أم غيرهما.

* * *

ومنها **كتاب آيين نامة في الأصر**، ذكره ابن النديم في جملة كتبه، وهو على ما يظهر منقول عن الفارسية، وقد ذكره في عيون الأخبار في الجزء ١ : ١١٢ و ١٣٣ و ١٥١ وفي مواضع أخر، ونقل عنه شيئاً مما يتعلق بمذاهب العجم في الرمي بالنشاب والضرب بالصولجان والعيافة وغيرها.

* * *

ومنها **كتاب خداينامة في السير**، أي سير ملوك الأعاجم، نقله عن الفارسية. ذكره صاحب الفهرست وصاحب طبقات الأطباء وغيرهما.

* * *

ومنها **كتاب التاج في سيرة انوشروان**، نقله عن الفارسية، وقد نقل

ابن قتيبة عن التاج في مواطن كثيرة ، و لكن لم يبين هل هو هذا أم غيره .

* * *

ومنها **كتاب مزدك** ، نقله عن الفارسية ، ونقله أيضاً أبان بن عبد الحميد اللاحقي ، وهو كتاب أدب وضع للتسلية بمثابة كليلة ودمنة .

* * *

وقد ترجم ابن المقفع عن الفارسية من كتب المنطق **كتاب قاطيغورياس** أي المقولات لأرسطو .

* * *

وكتاب باري ميناس أي العبارة .

* * *

وكتاب انا لوطيقا أي تحليل القياس .

* * *

وكتاب المدخل الى كتب المنطق المعروف بإيساغوجي لفرفوريوس الصوري [1]



(١) إخبار العلماء وطبقات الأطباء .

شعر ابن المقفع

عُرف ابن المقفع أنه كاتب مجيد ، وكان إذا أراد أن يقول الشعر قاله [1] ، ولكن شعره لم يبلغ في الإجادة درجة نثره ، وقد قيل له : مالك لا تقول الشعر ؟ فقال : الذي أرضاه لا يجيئني ، والذي يجيئني لا أرضاه . ذكر ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان والبيان والتبيين ونسبه في موضع آخر من الحيوان إلى الخليل بن أحمد، وقال في الحيوان أيضاً : قيل لابن المقفع : مالك لا تجوّد البيت والبيتين والثلاثة ؟ قال: إن جودتها عرف صاحبها ، فقال له السائل: وما عليك أن تعرف بالطوال الجياد ؟ وأورد في محاضرات الأدباء ١ : ٣٨ الجملة السابقة ولفظه فيها : الذي أرتضيه لا يجيبني ، والذي يجيبني لا أرتضيه . وذكر فيها في موضع أخر ١ : ٤٣ أنه قال : أنا المِسَنّ أسنّ الحديد ولا أقطع .

وقال الجاحظ في البيان والتبيين : كان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع – مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما – لا يستطيعان من الشعر إلا مالا يذكر مثله . وعدّه ابن النديم من الشعراء المقلين .

هذه جملة من أقوال العلماء في شعره وشاعريته . وقد رويت له أبيات : منها الأبيات الثلاثة التي قالها في رثاء عبد الكريم بن أبي العوجاء وقدقدمناها ص ٤١ والبيت الأخير مأخوذ من قول أعرابية مات لها

---

(١) البيان والتبيين .

ولد فقيل لها : ما أحسن عزاءك عن ابنك ؟ قالت : إن مصيبته آمنتني من المصائب بعده ، ومنها بيتان في الشراب رواهما له في محاضرات الأدباء ١ : ٣٢٤ وهما :

سَأَشْرَبُ مَا شَرِبْتُ عَلَى طَعَامِي ... ثَلَاثاً ثُمَّ أَتْرُكُهُ صَحِيحَا

فَلَسْتُ بِقَارِفٍ مِنْهُ أَثَاماً ... وَلَسْتُ بِرَاكِبٍ مِنْهُ قَبِيحَا

وروى له صاحب الوساطة بيتاً واحداً وهو قوله :

وَيَقْتُلُنِي فَيُقْتَلُ بِي كَرِيماً ... يَمُوتُ بِمَوْتِهِ بَشَرٌ كَثِيرُ

وهو أحد بيتين قالهما لما أراد سفيان بن معاوية قتله وإحراقه ، وقد تقدم مع اختلاف يسير ص ٣٦

وأورد له في البيان والتبيين ٢ : ٢٤٨ هذا البيت :

فَلَا تَلُمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ ... فَرُبَّ مَلُومٍ وَلَمْ يُذْنِبِ

وقد تقدم ص ٨١ أنه مأخوذ من قول الأحنف

هذا ما عثرنا عليه من شعره ، وإذا استنطقنا هذه الأبيات وعرضناها على محك النقد - تبين لنا جلياً أن ابن المقفع نظر إلى شعره نظر خبير مدقق ، وحكم عليه حكم ناقد بصير ، فإن هذا الشعر لا يزن جناح بعوضة عند العلماء بالشعر ، ولا ينهض بصاحبه إلى مستوى الشعراء المفلقين ، فابن المقفع أنصف نفسه بنفسه ، وكفى الباحثين مؤونة البحث والتدقيق ، والمتعنتين مؤونة اللجاجة والمراء ، فهو كاتب بارع ، وليس بشاعر ، وبضاعته في الشعر أدنى منزلة من بضاعته في النثر .

ما قيل في ابن المقفع

منزلته عند الأدباء والعلماء

ما اختلف اثنان في بلاغة ابن المقفع وتقدمه في صناعة الإنشاء؛ ولا يكاد الباحث يجد له ذكراً في كتاب إلا وهو مشفوع بالثناء على فصاحته وأدبه من المتقدمين والمتأخرين ·

فابن النديم يقول فيه : كان في نهاية الفصاحة والبلاغة ، كاتباً ، شاعراً ، مضطلعاً باللغتين : العربية والفارسية ، فصيحاً بهما ·

ويقول ابن أبي أصيبعة فيه : وعبارته سهلة قريبة المأخذ ، وله تآليف حسان ·

وقد قدمنا ص٣٩ عن المنصور أنه قال فيه : أكتب خلق الله ·

وفي أمالي المرتضى : وكان ابن المقفع - على قلة دينه - جيد الكلام ، فصيح العبارة ، له حكم وأمثال مستفادة ، وذكر طائفة منها ·

وتقدم ص ١٣٧ قول المحبي في اليتيمة ·

وقال القفطي : كان فاضلاً كاملاً ·· ألفاظه حكيمة ، ومقاصده من الخلل سليمة ·

وسمع أبو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال : كلامه صريح ، ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منثور ، وروض ممطور ·

وقال جعفر بن يحيى : عبد الحميد أصل ، وسهل بن هارون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر .

وذكر بعضهم ابن المقفع فقال : ألفاظه معان ، ومعانيه حكم ، فصل خطابه شفاء ، وخصل بيانه كفاء .

وقال الجاحظ في البيان والتبيين : قال إسحاق بن حسان : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحدٌ قط سئل ما البلاغة ؟ : فقال البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها . ومنها . وعدّه الجاحظ من المعلمين ، ثم من البلغاء المتأدبين ، مقدّماً في بلاغة اللسان والقلم .

عقله وغفلته

كان الخليل بن أحمد يحب أن يرى ابن المقفع ، وكان ابن المقفع يحب ان يرى الخليل ، فجمعهما عباد بن عباد المهلّبي ، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن . فقيل للخليل : كيف رأيت عبد الله ؟ قال : ما رأيت مثله ، وعلمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : ما رأيت مثله ، وعقله أكثر من علمه . قال المغيرة : لقد صدقا ، أدى عقل الخليل إلى أن مات أزهدَ الناس ، وجهلُ ابن المقفع أدّاه إلى أن كتب أماناً لعبد الله بن علي .. فاشتد على المنصور .. و كتب إلى سفيان بن معاوية أمير البصرة .. فقتله .(١)

(١) أمالي المرتضى ١:٩٤ ونحوه في محاضرات الأدباء ١:٦ والأغاني ١٨:٧٦

وقال الجاحظ فيه : وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أين ُغرّ المغتر ، ووُثق الوثق .

ومن استقرى أخبار ابن المقفع يجد فيها ما يدل على عقلٍ واسع ، ويرى أحياناً ما يدل على شيءٌ من الغفلة ؛ حتى إنه يجد في الأمر الواحد ما ُيشعر بتناقض حاله .

مثال هذا ما تقدم من إغرائه بني العباس وتشدده في كتاب الأمان وما يتعلق بذلك ، وهذا يدل على استخفاف ببطش المنصور وأشياعه ، ولا شك أن منشأه الغفلة عن قوة المنصور وبأسه ، وفي هذه الحادثة ذكر الراغب في محاضرات الأدباء ١ : ١٣ أن عبد الله بن علي استشار عبد الله بن المقفع فيما كان بينه وبين المنصور ، فقال : لست أقود جيشاً ، ولا أتقلد حرباً ، ولا أشير بسفك دم ، وعثرة الحرب لا تُستقال ، وغيري أولى بالمشورة في هذا المكان .

وهذا يدل على سعة عقل ، وشدة تيقظ ، وبعد نظر . ومثل هذا التباين يجعل الباحث في شكٍّ مما يقال ، ويحول بينه وبين الحقيقة ، ولكن شهادة الخليل وكلمة الجاحظ لا يستهان بهما .

تعلمه

تضافرت الروايات على أن ابن المقفع كان مؤدّباً ومعلماً . ذكر ذلك الجاحظ وغيره .

وقد قال في محاضرات الأدباء ١ : ٢٣ إن إسماعيل بن عليّ بن

عبد الله كلف عبد الله بن المقفع أن يجلس مع ابنه في كل أسبوع يوماً ، فقال : أتريد أن أثبتَ في ديوان النوكى ؟

وقد تقدم قوله لسعيد بن سلم في ابن شُبرُمة لما وعده أن يكلم الأمير ليضمه إلى أولاده : أفٍ له ، أيجعلك مؤدباً في آخر عمرك ؟ وهذا يدل على شدة كرهه لهذه المهنة ، ولعله — إن صح أنه عاناها — كان مكرهاً عليها ، نازلاً على حكم الضرورة فيها [1] .

معرفته علم الكلام

مدح الجاحظ ابن المقفع بما تقدم ذكره ثم قال :

وكان يتعاطى الكلام ، ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً ، وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أين غرَّ المغتر ووثق الواثق ، وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خُلَّص المتكلمين ومن النظارين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية ، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم ، رديء المدخل في مواضع الطعن عليهم . وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم ، فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بعد به .

وكلمة الجاحظ تُشعر بأن هذه الرسالة في علم الكلام ، وأنه لم يحسن منه غير الحكاية لدعوى القوم ، ولم نعثر على هذه الرسالة لنعلم ما فيها وننظر فيما قاله الجاحظ .

---

(١) ويؤيد هذا قول الجاحظ في البيان والتبيين : كان إسماعيل بن علي ألزم بعض بنيه عبد الله بن المقفع ليعلمه — الناشر

وقد التمس بعض الأدباء وجهاً لقول الجاحظ ، وهو أن ابن المقفع أطلق لسانه في المعتزلة ، والجاحظ من أئمتها ، فحكم عليه بما تقدم . ولكننا لم نعثر فيما اطلعنا عليه من كلام ابن المقفع على ما يشعر بانتقاصه المعتزلة ، أو تحامله عليهم .

خطابته وبداهته

قال الجاحظ : كان ابن المقفع مقدّماً في فصاحة اللسان . ولم يصرح بما أراده من الفصاحة هنا ، هل هو في الخطابة أم في غيرها .

وقال في طبقات الأطباء : كان عبد الله بن المقفع الخطيب فارسياً ، غير أننا لم نعثر على شيء من خطبه ولا على ما يشبه الخطب إلا الرسالة التي تقدم ذكرها عن ابن طيفور .

أما لسانه في الحديث فلا يقلّ في الفصاحة عن قلمه ، وقد رُويت له كلمات ابتدهها من غير أن يزوّرها في نفسه من قبل ، تدل على شدة عارضته ، وقوة بديهته ، وذلاقة لسانه ، وهي غاية في بلاغتها وإحكامها ، ومطابقتها الغرض .

من ذلك أن عيسى بن علي قال له : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال : كرهت أن أبيت على غير دين ، ومنه أن عيسى دعاه للغداء فقال : أعز الله الأمير ، لست يومي للكرام أكيلا ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأني مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عِشرة الأحرار [1]

---

(١) أمالي المرتضى ١ : ٩٥

وقال الجاحظ : كان شيخ يأتي ابن المقفع ، فألحّ عليه يسأله الغداء عنده ، وفي ذلك يقول : إنك تظن أني أتكلف لك شيئاً ؟ لا والله ، لا أقدّم إليك إلا ما عندي ، قال : فلما أتاه إذا ليس في منزله إلا كسرة يابسة وملح جريش . ووقف سائل بالباب فقال له : بورك فيك ، فلما لم يذهب قال : والله لئن خرجت إليك لأدُقَنّ ساقيك ؟ فقال ابن المقفع للسائل : إنك لو تعرف من صدق وعيده مثل ما أعرف من صدق وعده لم ترادّه كلمة ولم تقف طرفة عين [(١)]

وقال لبعض الكتاب : إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العيّ الأكبر .

وقال لآخر : عليك بما سهل من الألفاظ ، مع التجنب لألفاظ السِّفلة .

وقيل له : ما البلاغة ؟ فقال : التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها . وقال لبعض إخوانه : إذا صاحبت ملكاً فاعلم أنهم ينسبونك إلى قلة الوفاء ، فلا تشعرن قلبك استبطاءه ، فإنه لم يشعر أحد قلبه شيئاً إلا ظهر على لسانه إن كان سخيفاً ، وعلى وجهه إن كان حليماً [(٢)]

وأمثال هذا كثير فيما نقل من كلامه .

رأيه في العرب وكلام الأعراب

لم نعثر فيما وقفنا عليه من كلام ابن المقفع وأخباره على ما يدل على أنه كان شعوبياً أو بعض شعوبي ، وإنما رأينا في أخباره ما ينمّ على تعظيمه

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٥٠ (٢) أمالي المرتضى ١ : ٦٥

العرب وإعظامه كلامهم، وإعجابه بحكمتهم وبلاغتهم، لا سيما الأعراب، فقد نقل صاحب العقد الفريد (١) عن أبي العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شيبة أنه قال : كنا وقوفاً بالمِرْبَد ، وكان المِرْبَد مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع فبشَشنا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ثم قال : لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تفاتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلنا وملنا .

فلما استقر بنا المكان قال لنا : أي الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس ، فقال : ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم .

قلنا : فالروم ، قال : أصحاب صنعة ، قلنا : فالصين ، قال : أصحاب طُرْفة ، قلنا : فالهند ، قال : أصحاب فلسفة . قلنا : السودان ، قال : شر خلق الله ، قلنا : الترك ، قال : كلاب مختلسة ، قلنا : الخَزَر ، قال : بقر سائمة ، قلنا : فقل قال : العرب . فضحكنا . قال : أما إني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة ، فلا يفوتني حظي من المعرفة .

---

(١) ج ٢ ص ٥٠

إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسّن ما شاء فيحسن ، ويقبّح ما شاء فيقبح ، أدّبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم في أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم فقال (إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصم ، ودفع الحق باللسان ، أكبتُ للجنان .

وقال الحصري في زهر الآداب [1] قال ابن المقفع – وقد جرى ذكر الشعر وفضيلته – : أي حكمة تكون أبلغ أو أحسن ، أو أغرب أو أعجب ، من غلام بدوي لم يرَ ريفاً ، ولم يشبع من طعام ، يستوحش من الكلام ، ويفزع من البشر ، ويأوي إلى القفر واليرابيع والظباء ، وقد خالط الغيلان ، وأنس بالجانّ ، فإذا قال الشعر وصف مالم يره ، ولم يغذ به [2] ولم يعرفه ، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها ، ويمدح ويهجو ويذم ، ويعاتب ويشبب ، ويقول ما يكتب عنه ويروى له ويبقى عليه .

---

(١) ج ٢ ص ١٠٢ (٢) في نسخة : لم يعهده

ما أوخذ به من كلامه

عرفنا مما أسلفنا أن ابن المقفع كان فصيح اللسان ، فصيح القلم ، وقد يرتقي في فصاحة أسلوبه إلى درجة العرب الخلص ، ولكن كلامه لم يسلم من هنات جرى فيها على غير الأسلوب الصحيح الفصيح .

منها إدخال (أل) على (كل) و (بعض) . قال المعري في عبث الوليد : كان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخال الألف واللام على كل وبعض ، وروي عن الأصمعي أنه قال كلاماً معناه : قرأت آداب ابن المقفع فلم أر فيها لحناً إلا في موضع واحد ، وهو قوله : العلم أكبر من أن يحاط به فخذوا البعض .

وفي تاج العروس : قال أبو حاتم : قلت للأصمعي : رأيت في كتاب ابن المقفع : العلم كثير ، ولكن أخذ البعض خيرٌ من ترك الكل . فأنكره أشدّ الإنكار ، وقال : الألف واللام لا يدخلان في بعض وكل ، لأنهما معرفة بغير ألف ولام ، وفي القرآن العظيم : (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) وقال أبو حاتم : لا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعملها الناس حتى سيبويه والأخفش في كتابيهما لقلة علمهما بهذا النحو ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب .

ومنها إدخال (أل) على (غير) في مواضع من كلامه ، كقوله في باب الأسد والثور : ونفع النفس بضر الغير ، وفي باب اللبوءة والأسوار : وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من الغير فارتدع ، ولم

تدخل (أل) على (غير) في كلام فصيح يحتج بقوله. وإنما وقع في كلام المولَّدين.

ومنها إدخال (إلى) على (حيث) في قوله في باب البوم والغربان: حتى أفضوا إلى حيث هو نائم، فإن حيث لا تخرج عن الظرفية أو شبهها إلا قليلاً، ولم يرد جَرُّها بإلى في كلام فصيح.

ومنها. قوله في باب الناسك والضيف: يفضي إلى تشوش الأُمور.

قال في القاموس: والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن، ووهم الجوهري، وقال الأزهري: أما التشويش فإنه لا أُصل له، وإنه من كلام المولَّدين، وأَصله التهويش وهو التخليط، وفي المصباح: قال بعض الحذاق: هي كلمة مولدة. وقال ابن الأنباري: قال أئمة اللغة: إنما يقال هوّشت، وتبعه الأَزهري، وأنكرها الحريري، وتعقبه قوم وردوا عليه، ولكن كلام ابن الأنباري عن أئمة اللغة والأَزهري له قيمته عند علماء اللغة.



أمثلة من كلامه

مثل مضار السلطان في جنب منافعه

قال في اليتيمة : مَثَل قليل مضار السلطان في جنب منافعه مثلُ الغيث ، الذي هو سقيا الله ، وبركات السماء ، وحياة الأرض ومن عليها . وقد يتأذّى به السَفْر ، ويتداعى له البنيان ، وتكون فيه الصواعق ، وتَدِرُّ سيوله ، فيهلِك الناس والدواب ، وتموج له البحار ، فتشتد البلية منه على أهله ، فلا يمنع الناس إذا نظروا إلى آثار رحمة الله في الأرض التي أحيا ، والنبات الذي أخرج ، والرزق الذي بسط ، والرحمة التي نشرت ، أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها ، ويُلغوا ذكر خواص البلايا التي دخلت على خواص الخلق ، ومَثلُ الرياح التي يرسلها الله نُشُراً بين يدي رحمته ، فيسوق بها السحاب ، ويجعلها لَقاحاً للثمرات ، وأرواحاً للعباد ، يتنسمون منها ، ويتقلبون فيها ، وتجري بها مياههم ، وتَقِدُ بها نيرانهم ، وتسير بها أفلاكهم ، وقد تضر بكثير من الناس في برهم وبحرهم ، ويخلص ذلك إلى أنفسهم وأموالهم ، فيشكوها منهم الشاكون ، ويتأذّى بها المتأذون ، ولا يزيلها ذلك عن منزلتها التي جعلها الله بها ، وأمرها الذي سخرها له من قوام عباده وتمام نعمته ، ومثلُ الشتاء والصيف اللذين جعل الله حرهما وبردهما صلاحاً للحرث والنسل ، ونتاجاً للحَبّ والثمر [1]

---

(١) عيون الأخبار ١ : ٣

من حكمة العجم

قال ابن قتيبة : وقرأت في كتاب الآيين [1] أن بعض ملوك العجم قال في خطبة له : إني إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر [2]

وقال أيضاً : وقرأت في الآيين : ينبغي للحاكم أن يعرف القضاء الحق العدل ، والقضاء العدل غير الحق ، والقضاء الحق غير العدل ، ويقايس بتثبت وروية ، ويتحفظ من الشبهة .

والقضاء الحق العدل عندهم قتل النفس بالنفس ، والقضاء العدل غير الحق قتل الحر بالعبد ، والقضاء الحق غير العدل الدية على العاقلة [3]

وصية بعض الخدم ابنه

وفي الآيين أن رجلاً من خدم دار المملكة أوصى ابنه فقال : إذا أكلت فضم شفتيك ، ولا تلفتن يميناً وشمالاً ، ولا تتخذن خلالك قصبا ، ولا تلقمن بسكين أبداً ، وإذا كان في يدك سكين وأردت التقاماً فضعها على مائدتك ثم التقم ، ولا تجلس فوق من هو أسن منك وأرفع منزلة ، ولا تتخلل بعود آس ، ولا تمسح بثياب بدنك ، ولا ترق ماء وأنت قائم ، ولا تحفر أرضا بأظفارك ، ولا تجلس على حائط أو باب أو تكتب عليهما فتلعن ، ولا تسترح على أسكفة [1] فتجهل ، ولا

---

(١) الآيين : القانون والعادة (٢) عيون الأخبار ١ : ٨

(٣) عيون الأخبار ١ : ٦٢ (١) الأسكفة : عتبة الباب .

تمتخط حيث يسمع امتخاطك ، ولا تبصق في الارض المنظفة [١]

مذاهب العجم في العيافة

قرأت في الآيين : كانت العجم تقول : إذا تحوّلت السباع والطير الجبلية عن أماكنها ومواضعها دلت بذلك على أن المشتى سيشتد ويتفاقم ، وإذا نقلت الجرذان برًّا أوشعيراً أو طعاماً إلى رب بيت رزق الزيادة في ماله وولده ، وإن هي قرضت ثيابه دلت بذلك على نقص ماله وولده ، فينبغي أن يقطع ذلك القرض ويصلح ، وإذا شبت النار شبوباً كالصخب دلت على فرح شديد ، وإذا شبت شبوباً كالبكاء دلت على حزن ، وأما النار التي تشتعل في أسفل القدور فإنها تدل على أمطار تكثر أو ضيف يحضر . وإذا فشا الموت في البقر وقع الموتانُ في البشر ، وإذا فشا الموت في الخنازير عمَّ الناسَ السلامةُ والعافية ، وإذا فشا الموت في السباع والوحوش أصاب الناس ضيقة ، وإذا فشا الموت في الجرذان أخصب الناس [٢]

المرأة والحجاب

إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفَن ، وعزمهن إلى وَهَن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فإن استطعت ألا يعرفن عليك فافعل ، ولا تملكن امرأة من

(٢) عيون الأخبار ٣ : ٢٢١ (٢) عيون الأخبار ١ : ١٥١

الأمر ما جاوز نفسها ، فإن ذلك أنعم لحالها ، وأرخى لبالها ، وأدوم لجمالها، وإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تعطها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء فيمللنك وتملّهن ، واستبق من نفسك بقية ، فإن إمساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار ، خيرٌ من أن يهجمن عليك على انكسار ، وإياك والتغاير في غير موضع غيرة ، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم [1] .

كلمات في الحكمة

الدَّين رِقٌ فانظر عند من تضع نفسك [2] القلم بريد القلب ، يخبر بالخبر ، وينظر بلا بصر . كل مصحوب ذو هفوات ، والكتاب مأمون العثرات . أحق ما صان الرجل أمر دينه . الآلف للدنيا مغتر . القلب أسرع تقلباً من الطرف . المتكلف لما لا يعنيه متعرض لما يكره . التواضع يورث المحبة . سرور الدنيا كأحلام النائم . من أهلك نفسه في مرضات غيره عظمت جنايته . من عرف ثمار الأعمال كان حقيقاً ألاّ يغرس مُراً . اطلب الرحمة بالرحمة . من أحب التزكية تعرض للضحكة . لا صلاح لرعية واليها فاسد . استعن بالصمت على إطفاء الغضب . البصير من عرف ضَرّه من نفعه . من عدم ماله أنكره

(١) عيون الأخبار ٤ : ٧٨ (٢) عيون الأخبار ٤ : ٧ والبيان والتبيين ٣ : ١٥٥

أهله . من قل كلامه حمد عقله . من عرف قدره قلّ إفراطه . من حرم العقل رزئ دنياه وآخرته[1] .

تهنئة بجارية

بارك الله لكم في الابنة المستفادة ، وجعلها لكم زيناً ، وأجرى لكم بها خيراً ، فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات ، والعمات والخالات ، ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم .

تعزية على ابنة

جدّد الله لك من هبته ما يكون خلفاً بما رزئته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها ، فما أقلّ كثير الدنيا في قليل الآخرة ، مع فناء هذه ودوام تلك .

جواب في السلامة

أما بعد فقد أتاني كتاب الأمير رجعة كتاب إليه ، فكان فيه تصديق الظن ، وتثبيت الرأي ، ودرك البغية ، والله محمود ، فأمتع الله بالأمير وأمتعه بصالح ما آتاه ، وزاده من الخيرات مستعمراً له فيه ، مستعملاً بطاعته التي بها يفوز الفائزون ، والذي رزق الله من الأمير فهو عندي عظيم نفيس ، وكل الذي قبلي عن مكافأته فمقصر ، إلا أن ليس في النية تقصير ، ولا بلوغ لشيء من الأمور إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته ، والسلام .

(١) المحاضرات ١ : ٥٣ — ٥٥

تحميد

الحمد لله ذي العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذي لا يعجزه شيء ، ولا يمتنع منه ، ولا يدفع قضاءه ولا أمره . وإنما قوله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . والحمد لله الذي خلق بعلمه ، ودبر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها ، وملكة منه لها ، لا معقب لحكمه ، ولا شريك له في شيء من الأمور ، يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان للناس الخِيَرة في شيء من أمورهم ، سبحان الله وتعالى عما يشركون . والحمد لله الذي جعل صفو ما اختار من الامور دينه الذي ارتضى لنفسه ، ولمن أراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقربون يعظمون جلاله ، ويقدسون أسماءه ، ويذكرون آلاءه ، (لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) . وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه ، يطيعون أمره ، ويذبّون عن محارمه ، ويصدقون بوعده ، ويوفون بعهده ، ويأخذون بحقه ، ويجاهدون عدوه . وكان لهم عنده ما وعدهم من تصديقه قولهم ، وإفلاجه حجتهم ، وإعزازه دينهم ، وإظهاره حقهم ، وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عندما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسهم ، وانتقامه منهم ، وغضبه عليهم ، مضى على ذلك أمره ، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى ، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقي ، ليتم نوره ولو كره الكافرون ، (لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ) .

الخاتمة

الغاية من وضع هذه الرسالة جمع طائفة من أخبار ابن المقفع ، إلى شيء من درس حياته وآثاره ، والتنبيه للمواطن الجديرة بالعناية من كلامه، وقد أوردنا فيما سبق جملة منه ، وعقدنا بلفظه أكثر ما لخصناه من كتبه، ثم ختمنا الرسالة بطائفة أخرى من كلامه في أغراض متعددة ، وغايتنا من ذلك كله أن يجد الواقف عليها من الأمثلة المختلفة صورةً تامةً من آثاره، تغنيه عن الرجوع إلى كتبه ، وتكفيه مؤونة البحث والتنقيب عما هو مبعثرٌ في بطون الكتب منها .

وعسى أن نكون وُفقنا إلى تأليف المختلف ، وجمع المفترق ، وإيضاح الغامض من أخباره وآثاره ، وجعلنا الفائدة منها على طرف الثمام إن شاء الله تعالى .

غرة ذي القعدة عام ١٣٥٥ **المؤلف**

تنبيه - وقع أثناء الطبع سهو في بعض الحروف من نقص حرف أو نقطة أو حركة مثل: (كبكاوس) ص ١٨ س٧ وصوابه (كيكاوس) (وأبو زيد) ص ٢٥ س ٨ والصواب (أبي زيد) و (تعداد) ص ٩٣ س ٥ والصواب (تعدد) و(لا يفتَرُونَ) في ص١٧٣ س١١ والصواب (لا يَفْتُرُونَ) وما أشبه ذلك مما لم يخل من مثله كتاب فأعرضنا عن ذكره اعتماداً على فطنة القاري .

فهرس عمدة الأديب - عبد الله بن المقفع

